تطاول المنافقين على الثوابت

د. سعيد بن ناصر الغامدي

بسم الله الرحمن الرحيم

تطاول المنافقين على الثوابت

المقدمة وتحتوي:

أولاً: أهمية الموضوع وضوابطه وحدوده.

ثانياً: تحديد المصطلحات:

أ- التطاول.

ب- المنافقون.

ج- الثوابت.

د- ثالثاً: مستويات تطاول المنافقين على الثوابت.

١- المستوى الأعلى (المستوى المرجعي).

أ- الوحي والنبوة في ذاتهما.

ب- القرآن

ج- السنة

د- الصحابة.

هـ - القرون الفاضلة.

و- اللغة العربية.

ز - فهم العلماء المعتبرين.

٢-المستوى الأفقي (المستوى التطبيقي).

أ- الإعتقادي (أركان الإيمان الستة).

ب- التشريعي.

ج- العبادي.

٣- المستوى الرأسي (المستوى العملي).

أ- الأخلاقي.

ب- الانتمائي والولائي.

المقدمة

أولاً: أهمية الموضوع وضوابطه وحدوده:

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا خليل الله محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، أما بعد:

ففي هذه الأسطر نبذ سريعة ترصد شيئاً من تطاول أهل الفكر المادي وتلامذته على ثوابت الإسلام وقضاياه الكبرى، تؤكد خطورة ظاهرة النفاق والمنافقين.

وفي هذا البحث جملة من النقول المتطاولة على ثوابت ديننا - وليس نقلها - بالضرورة وصف لقائليها بالنفاق أو الكفر- وإن كانت النصوص ذاتها دالة على ذلك، عملاً بقاعدة أهل السنة والجماعة في (التفريق حين الحكم بين القول وقائله والفعل وفاعله؛ لأن الحكم بالعموم والإطلاق غير الحكم بالتعيين والتخصيص)، كما أن بعض النصوص صريحة في الكفر وكان حقها أن تذكر في شواهد الردة، ولكني أتيت بها هنا من جهة أن أصحابها مع بشاعة وشناعة ما قالوا يدعون أنهم من أهل الإسلام، ويريدون الجمع بين المتناقضات، وفي الوقت ذاته لا يريدون أن يكشف زيفهم وتناقضهم أحد، فإن فعل قالوا: (تكفيري جامد نصوصي) وهم أتوا بالعظائم وجهروا بأبشع المآثم.، وحالهم – في تقليدهم لأساتذتهم الغربيين – حال من يقول: نحن ننتقد الدين

والوحي والنبوات مثلما تفعلون، ونسلك في التهوين من الدين كما تسلكون، ونبتعد عن معاييره وضوابطه ومحكماته وأحكامه وتشريعاته كما تبتعدون، ونرى أن من حرية الأديب والمفكر أن ينتقد المجتمع وعقائده وقيمه كما قررتم في مبادئ الحرية، ونعتقد أنه لا يكون مبدعاً ولا متطوراً إلا إذا مارس ذلك بحرية مطلقة كما تمارسون.

بيد أن هناك فرقاً جوهرياً بين الأساتذة الغربيين والأتباع من أبناء المسلمين. وهذا الفرق هو أن الغربي إذا قيل: أنت كافر؛ بالنصرانية واليهودية وبالله رب العالمين، أعترف بذلك وأقر، ولم يجد في هذا الإقرار سوى تحصيل الحاصل وتقرير المقرر، أما الأتباع من أبناء البلدان الإسلامية إذا فاه أو كتب أحدهم ما يناقض الدين، ثم قيل له: هذا كفر، وخروج من دين الإسلام وردة؛ صاح مستنكراً، وصرخ مستجيراً، واستدعى الحكام، وسلَّ الأقلام، وسخر الإعلام لِسحق من كشف حقيقته. إن الواحد من هؤلاء يريد أن يمارس الكفر ويدعو له، ويريد في الوقت ذاته أن يعيش آمناً ويحيا بين المسلمين -الذين ينال من أعز شيء عندهم- وله سمعة طيبة ومنزلة حسنة، إنه يريد، كشأن أهل النفاق دائماً، أن يتخذ من انتسابه للإسلام جداراً عازلاً يقاتل من خلفه ويحتمي به.

وقد نقلت هنا شيئاً من هذا الغثاء الزائف من أجل تأكيد خطورة قضية العدوان على الثوابت وبشاعة جريمة التطاولات عليه، وأن خطورتها تتمثل في أنها ليست انفصالاً عن الإسلام والإيمان فحسب، بل ومناقضة لذلك تمام المناقضة، بل إنها في أوليات منطلقاتها تسعى لنقض الإسلام وتهدف إلى هدم الديانة، وخاصة عندما ننظر إلى تلك المذاهب والتوجهات التي يقوم نسيجها الفكري على كل شيء سوى الإسلام، وفي داخل أدغالها وسراديبها ومتاهاتها يجد الفاحص أصوات السقوط الاعتقادي، ونظرات السلخ الفكري، ونظريات الكفر والإلحاد، أنفاس لاهثة، ونفوس هائمة، وقلوب مظلمة، وأفكار جاهلية، تقوم أساساً على إدانة الدين، ورفض الحق والخير والهدى والرشاد، وتبرير الجهل والانحطاط، وتسويغ الردة والضلال .

فخاخ منصوبة نُسجت أحابيلها من قصائد ودراسات نقدية ومقالات وقصص وروايات، يقع في شراكها حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، زائغو القلوب والعقول، أتباع الشهوات، أرباب الشهوات .

ادّعوا أنهم جاؤوا من أجل التقدم والنهضة والرقي، فإذا هم ليسوا سوى طلائع عدو، وإفرازات عداوة، وإرهاصات حرب شاملة .

يحملون أسماء المسلمين من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، لكن عقائدهم غير عقائد المسلمين، وأفكارهم تناقض جوهر الدين الحنيف

دين الإسلام، وطموحاتهم في إزالته من الوجود أو تهميشه، من خلال المهاجمة الواضحة لدين الله والاستخفاف الجلي بالله العظيم - جَلَّ وَعَلاَ - وتقبيح الوحي المعصوم، وتشويه الاستمساك بالوحي، وتزييف حقائق الدين - والدين كله حقائق -، ومقاومة قواعده وأصوله، كل ذلك في تبجح ظاهر، وجرأة وقحة، وسفاهة معلنة: {هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ} [المنافقون:٤].

والموضوع واسع الأرجاء، وقد وضعت خطته المفترضة المذكورة آنفاً وكتبت في أهم القضايا وهي: (الوحي والنبوة وأركان الإيمان الستة) وتركت الباقي لضيق مساحة المتاح في هذا المقام.

ثانياً: تحديد المصطلحات:

أهمية تحديد المفاهيم والمصطلحات:

كثرت فتن هذا الزمان وتعاظمت وتفاقمت، ومن أخطرها فوضى المصطلحات والمفاهيم، التي وصل التباسها حتى إلى بعض دعاة الإسلام وطلاب العلم فيه، وهذا مصداق قول حذيفة: «ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الفتن». أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٤٧٥، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٧٤.

وقد وضع رضي الله عنه وهو الخبير بشأن الفتن، معياراً لذلك فقال: «إذا أحب أحدكم أن يعلم: أصابَتْه الفتنة أم لا؟ فلينظر! فإن كان رأى حلالاً ما كان يراه حراماً فقد أصابته الفتنة، وإن كان يرى حراماً ما كان يراه حلالاً فقد أصابته». أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه ٤/ ٥١٤ ومصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٤٧٤والحلية ١/ ٢٧٣.

وفي الحديث عن معاذ مرفوعاً: «أنها ستكون فتنة، فقال: فكيف لنا يا رسول الله وكيف نصنع؟ قال: ترجعون إلى أمركم الأول». ذكره في مجمع الزوائد ٧/ ٣٣. وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عبد الله بن صالح، وقد وثق وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح

وعن أبي أمامة مرفوعاً: «ستكون فتنة، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً؛ إلا من أحياه الله بالعلم». أخرجه ابن ماجة ٢/ ١٣٥. والدارمي ١/ ١٩. وفي إسناده ضعف كما في مصباح الزجاجة ٤/ ١٧.

ومصداق ذلك في قوله – تعالى –: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِئَايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: ٢٣]، والمطلوب أمام هذا اللبس والالتباس بيان الحق وإظهار الحقيقة وكشف الشبهة وقطع اللبس وبيان الزيف .

والسؤال المهم في هذا المقام: من المستفيد من تذويب المفاهيم والمصطلحات وعدم تحديدها؟

ولعلنا نجد جواباً في سوق سعار الفكر البرغماتي والمادي القائم على مفاهيم نفاقية (الوصول للكسب بأي طريقة) و (إظهار ما لا يستبطن) و (تطبيق معايير مزدوجة) و (النسبية الأخلاقية).

لقد قال نعوم تشومسكي: (المنافقون هم الذين يطبقون على غيرهم معايير يرفضون تطبيقها على أنفسهم)، انظر كتاب هيمنة الإعلام لتشومسكي ص٧٢ (١) .

التطاول:

في اللغة: تطاول الرجل على فلان تكبر وترفع واعتدى.(محيط المحيط ٥٦١).

ومن الشعر قول ابن حيوس:

كالدوقس المغـرور ظن بجهلــه أن الوِهاد تطــاول الآكاما

وقول المعري:

كسرى أصاب الكسر جابر ملكه والقصر كر على تطاول قيصر

وقول أبي هلال العسكري:

ولا تتجاهل إن منيت بجـاهل فليس فساد الجاه إلا التجاهل

ولا تتطاول إن تطاول أحمق فرأس حماقات الرجال التطاول

ويراد بالتطاول هنا: (الاستكبار عن قبول أمر الله أو تصديق خبره، أو رد ذلك، أو الاعتراض عليه بالباطل، أو ممارسة التشكيك فيه، أو السخرية منه).

وقد وصف الله هذه الحالة في القرآن في غير ما آية، من ذلك:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء:١٧٣].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان:٢١].

شرح المفهوم:

الاستكبار: من الكبر وهو التعالي علماً أو عملاً، فكل من لم يسلم لشرع الله تسليماً كاملاً ففيه نوع من الاستكبار يقل أو يكثر.

قبول أمرالله وخبره: شرط لصحة الإيمان ووحي الله إما خبر يجب تصديقه وإما أمر بالفعل أو الترك يجب امتثاله (وتمت كلة ربك صدقا وعدلا).

أو رد ذلك: أي ترك أحكام الله وجحد أخباره ضلالاً في ذات نفسه.

أو الاعتراض عليها: أي أنه يتعدى في تركه وجحوده ليضل غيره بذلك.

بالباطل: فكل مستكبر أو راد أو معترض على أمر الله وخبره هو بالضرورة مبطل و إن سمى عمله (ثقافة أو فلسفة أو علماً أو سياسة أو عصرنة أو فكراً) أو غير ذلك؛ إذ ليس بعد الحق إلا الضلال.

ممارسة التشكيك: أي أنه يعرض أحكام الله وأخباره على سبيل الارتياب والشك فيها.

أو السخرية: أي الاستهزاء بشيء من دين الله تعالى .

ويخرج من هذا المفهوم كل من قبل بشرع الله وخبره جملة وعلى الغيب، وسلم بذلك تسليماً حقيقياً، وإن حصل منه رد أو اعتراض

بسب تأويل محتمل أو شبهة أو تقليد. ولا يستثنى من ذلك إلا ممارسة التشكيك والاستهزاء؛ فإن ذلك مبني في الغالب على الاستخفاف والتدنيس.

المنافقون:

جمع منافق: ومن تعريفات العلماء السابقين يتضح أنهم يعرفونه بإظهار الإسلام وإبطان خلافه، ربطاً بين الأصل اللغوي والاستعمال الشرعي وإن تنوعت عباراتهم في التعبير عن ذلك، ومنه: قوله في القاموس المحيط: (ونافق في الدين: ستر كفره وأظهر إيمانه). القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز أبادي ج ٣ ص٢٩٦.

ويقول الإمام ابن تيمية: (والمقصود هنا أن الزنديق في عرف هؤلاء الفقهاء هو المنافق الذي كان على عهد النبي ﷺ وهو أن يظهر الإسلام ويبطن غيره، سواء أبطن ديناً من الأديان كدين اليهود والنصارى أو غيرهم، أو كان معطلاً جاحداً للصانع والمعاد والأعمال الصالحة). مجموع الفتاوى لابن تيمية ج ٧ ص٤٧١.

ويقول الإمام ابن القيم في تعريف النفاق: (وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به، لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس يهديهم بإذنه وينذرهم بأسه ويخوفهم عقابه). صفات المنافقين لابن القيم ص١٥-١٦.

وكل هذا مبني على الصلة بين التعريف الاصطلاحي الشرعي، والتعريف الشرعي واللغوي، وهي صلة واضحة، فالمنافق يشبه نفاق اليربوع وخداعه للصياد .

يقول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة، موضحاً الصلة بين المعنى الشرعي والمعنى في أصل اللغة:(ومنه اشتقاق النفاق لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر، فكأن الإيمان يخرج منه أويخرج هو من الإيمان في خفاء، ويمكن أن الأصل في الباب واحد وهو الخروج). معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج ٥ ص٤٥٤.

ويقول صاحب لسان العرب في الصلة بين المعنى الشرعي واستعمالات العرب لهذا اللفظ: (والنفاق: الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من وجه آخر مشتق من نافقاء اليربوع إسلامية، وقد نافق منافقة ونفاقاً، وقد تكرر في الحديث ذكر النفاق وما تصرف منه اسماً وفعلاً، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه وإن كان أصله في اللغة معروفاً، يقال: نافق ينافق منافقة ونفاقاً، وهو مأخوذ من النافقاء لا من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره) لسان العرب لابن منظور ج ١. ص ٣٥٩.

ويقول الإمام ابن تيمية كذلك في الصلة بين المعنى اللغوي والشرعي: (ولفظ النفاق من هذا الباب فإنه في الشرع إظهار الدين وإبطان خلافه، وهذا المعنى الشرعي أخص من مسمى النفاق في اللغة فإنه في اللغة أعم من إظهار الدين ثم إبطان ما يخالف الدين) مجموع الفتاوى لابن تيمية ج ١١ ص١٤٣.

وهكذا تظهر الصلة واضحة من خلال التعريفات وكلام العلماء وأهل اللغة في الربط بين المعنيين، فكأن المنافق قد جعل الكفر عقيدته، ولكنه عندما يوضع أمام الحقيقة يهرب ويخرج من مخرج الإيمان، فكأنه اليربوع في تصرفه، فاليربوع اتخذ بيتاً في الأرض له عدة أبواب أو مخارج فكلما حاول الصياد إمساكه من ناحية خرج من الناحية الأخرى، وهذا كلما حاول المسلمون وكادوا أن يكتشفوا أمره كان له عدة مخارج يخرج منها.

وكما بيّن صاحب اللسان أن هذا الاسم لم يعرف إلا في الإسلام، وإن كان أصله اللغوي معروفاً قبل ذلك، ولكن لما أتى الإسلام عرفت هذه الطائفة بهذا الاسم للمشابهة القوية بين الاصطلاحين.

هذا هو حد النفاق لغوياً وشرعياً ووجه المناسبة والربط بينهما.

والنفاق (بحسب اجتهادي) هو:

(إظهار الإسلام قولاً أو عملاً مع إبطان الشك في محكماته وثوابته،

أو الاستكبار على شرع الله، أو التكذيب، أو البغض لشيء ثبت عن الله تعالى، أو السخرية بشيء من ذلك).

الثوابت:

أ- المراد بها:

جمع ثابت وهو:

الراسخ المستقر المقيم على أمر لا يتغير.

والثبات فيه معنى الديمومة والاستمرار والملازمة والبقاء، وفي القرآن: {كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ} [إبراهيم: ٢٤]، و {يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ } [إبراهيم: ٢٧]، وفيه {يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ} [الرعد: ٣٩] وفيه {وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ} [البقرة: ٢٦٥] وفيه: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [النساء: ٦٦].

معنى الثابت في الاصطلاح

لم يرد هذا المصطلح بمعناه المتداول اليوم، وإنما ورد في مجال صحة النقل فيقال: نص ثابت أو غير ثابت، وفي مجال النظر فيقال: قضية ثبوتية، وفي مجال القضاء والفقه فيقال: حكم ثابت وقضية ثابتة ونحو ذلك.

أما الثوابت بالمعنى المستخدم اليوم فيأتي في مواضعات العلماء السابقين بإطلاقات منها: (الإجماع) ومنها (المعلوم من الدين بالضرورة) وقد تسمى الأصول / أو الكليات / أو المحكمات.

وهو ذلك القدر الذي يمثل دين الإسلام ويمثل هويته وحقيقته، بحيث لا يتصور إسلام بدونه، وهذا القدر يمكن ـ باطمئنان ـ أن تطلق عليه (الثابت).

ب- أمثلة الثابت:

وذلك كإجماعهم على وجوب الصلاة والزكاة والحج وصيام رمضان (وليس شوالاً ولا محرماً مثلاً) وأن الوضوء شرط للصلاة، وأنه قبلها (وليس بعدها كما يمكن أن يوصل إليه التحليل اللغوي للآية) وأن البيع حلال والزواج حلال، وأن هناك أحكام للإيلاء، والظهار والطلاق والقصاص والحدود، وغير ذلك من مستويات الإجماع حتى يصل إلى أن الطواف إنما هو بجبل البيت عن يسار الطائف، وأن البدء يكون بالصفا

وأن النبي ﷺ مدفون في المدينة، وأن القبلة هي الكعبة، وأن السرقة والزنا والربا والقتل والعدوان والخمر والخنزير والميتة حرام.

وان الحكم بما أنزل الله فريضة، وأن السنة أصل واتِّباعها واجب، وأن الزيادة في الدين ما ليس منه كالانتقاص منه؛ كلها محرمة.

وان العدل واجب والحق لازم والأخلاق الفاضلة لازمة ثابتة.

المتغيرات:

١- تعريفها:

المتغير: اسم فاعل من تغير الخماسي، ومعناه تحول، ويقال: غيّره: إذا جعله غير ما كان، وحوّله، وبدّله، وفي التنزيل: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ} [الرعد: ١١]. وفيه: {ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ}. [الأنفال: ٥٣].

التغير في الشريعة الإسلامية هو:

ما كان محل ظن ونظر. والظن: إدراك الطرف الراجح، والنظر: ترتيب أمور معلومة للتوصل بها إلى مجهول، فهو مكون من مقدمات قد تكون ظنية تحتاج إلى إقامة دليل وبيان جهة دلالته، ومن هنا يمكن مناقشة الدليل، ويمكن مناقشة دلالته على المدلول، وكل ذلك يخرج المسألة من حد الثبات إلى حد التغير.

ومساحة كل النظر في الشريعة قليلة في أصول الأبواب، كثيرة في فروعها، فالثابت في جملة الواجبات والمحرمات كبير، ولكن في فروعها المتغير هو الكبير.

فيمكن أن نقول: إن الفروع الخارجة عن الإجماع ـ والتي هي محل نظر وتفكر ـ تمثل جزءاً من المتغير.

والثابت والمتغير اصطلاحان حديثان سريا في كلام أهل الشريعة من قبل الأدباء، حيث تكلموا في الأدب عن الثابت والمتحول، وعبر بعضهم عن ذلك بالثابت والمتغير، وتوسع آخرون ـ في ظل اضطراب المصطلحات في عصرنا ـ إلى التعبير عن ذلك بالأصالة والمعاصرة، وبالقديم والحديث، وبالمطلق والنسبي وبالتراث والحداثة وكل من هذه المصطلحات الثنائية وضعت بإزاء معان مختلفة، بينهما فوارق شتى إلا أن الأمر أصبح فوضى في استعمال المصطلحات بإزاء المفاهيم.

ثانياً: مستويات تطاول المنافقين على الثوابت:

ثلاثة مستويات:

المستوى الأعلى (المستوى المرجعي).

المستوى الأفقي (المستوى التطبيقي).

المستوى الرأسي (المستوى العملي).

ولنعرض لكل واحد من هذه المستويات عرضاً ملخصاً:

١-المستوى الأعلى (المستوى المرجعي):

المراد بالمرجعية هنا:

أ- الوحي والنبوة في ذاتها.

ب-القرآن.

ث-السنة.

ج-الصحابة.

ح-القرون الفاضلة.

خ-اللغة.

د-فهم العلماء المعتبرين.

وسأقصر الشواهد هنا على قضية الوحي والنبوة باعتبار عموم معناهما واندراج قضايا عديدة تحت هذا العموم.

أما كلامهم عن الوحي فمنه قول حسن حنفي في معرض رده على مناقش خشي عليه أن يكون «مؤمناً» فأجابه قائلاً: (... فأنت تعني الإيمان السلفي التاريخي... إلخ والمتوارث عبر التاريخ وهو الشيء الذي تخافه عليّ ؛ لذلك فإن إيماني يكفرني، كما أنه يكفرك أيضاً، وبالتالي

فإن القضية بالنسبة لنا هي التحدي ... وأعتقد أن الإخوة العلمانيين يستعجلون التقدم، إنهم يريدونه إيجابياً فقط، وأنا أريد أولاً أن أمنع عوائق التقدم، أي أعمل للتقدم سلباً إذا جاز التعبير، فإذا ما استطعت ذلك عندئذ أسلّم المجتمع العربي إلى الإخوة العلمانيين لكي يبنوه إيجاباً، ومن ثم أنا مقدم لهم، أنا ماركسي شاب وهم ماركسيون شيوخ هذا تقسيم لأدوار العمل ... وفي ما يتعلق بمضمون الوحي وحادث الوحي، فكما بينت لكم، أنا مفكر وضعي، أقصد أنا وضعي منهجي ولست وضعياً مذهبياً، إن كل ما يخرج عن نطاق الحس والمادة والتحليل، أضعه بين قوسين ...) الإسلام والحداثة: ص ٢١٨ - ٢١٩.

ويقول حسن حنفي أيضاً في قوله: (... الحداثة تبدأ بالالتحام المباشر مع الواقع، فالبنسبة لقضية فلسطين، هل إنك تحتاج إلى العودة إلى القرآن والحديث لتنادي بالتحرير؟ وفي قضية الشعر والفن، هل أنت محتاج إلى نص قرآني أو حديث نبوي لكي تعرف أو تجد حلاً لقضايا الشعر والفن وقضايا الوحدة والتجزئة، قضايا الهوية والاختلاف... إلخ، وهذا يعني بأن الالتحام المباشر بالواقع يجبُّ أحياناً كل نص، بل إنك كما قال مالك بن أنس: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» قل أنت: قال الله في كتابه الكريم: يا شباب الحجارة ويا أطفال الحجارة استمروا، ويكون كلامك صحيحاً...، إن المسلم يجوز له أن يضع نصاً

يعبّر به عن مقصدٍ في الواقع ويكون مصدراً للحكم) الإسلام والحداثة: ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

وقرر بأنه (... قد تداخل كلام الله وكلام البشر في أصل الوحي في القرآن ...) المصدر السابق ١٣٨.

ومِن أظهر من تصدى لنصوص الوحي وخاصة القرآن المسمى (نصر أبو زيد وهو نصر حامد أبو زيد، أحد أشد عتاة أعداء الإسلام المعاصرين، يرى أن القرآن العظيم مجرد نص لغوي، وأن الوحي مجرد ظاهرة، وكل ذلك قابل للنقاش والأخذ والرد، يتبنى العلمانية ديناً، ومناقضة الإسلام مبدأ، ومحاربة الشريعة الإسلامية غاية، اهتم بالدراسات اللغوية وعلوم القرآن وقضايا التأويل، محاولاً إيجاد أرضية فكرية لتقويض الإسلام، مجمل كتاباته تدل على أنه يتبنى هدم الإسلام من داخل الإسلام نفسه، حمته السلطة العلمانية، ومنعت من مقاضاته، وسهلت خروجه خارج البلد، حيث تلقفته الجامعات الغربية في أسبانيا وهولندا وأمريكا وفرنسا.

يقول نصر حامد أبو زيد في معرض رده لنصوص الوحي المعصوم المنزل على نبينا محمد ﷺ: (... إن النصوص الدينية ليست في التحليل الأخير سوى نصوص لغوية)، (... إن النصوص الدينية نصوص لغوية

شأنها شأن أي نصوص أخرى في الثقافة) قضايا وشهادات عدد ٢ بعنوان «الحداثة»، صيف ١٩٩٠ م/ ١٤١. هـ: ص ٣٨٩ . و ص ٣٩١، ٣٩٢.

ثم يخلص من هذا الكلام الهزيل ليصل إلى مراده النهائي، والذي سوف يرتب عليه نسف الدين كله فيقول: (وإذا كنا نتبنى القول ببشرية النصوص الدينية فإن هذا التبني لا يقوم على أساس نفعي أيديلوجي يواجه الفكر الديني السائد والمسيطر، بل يقوم على أساس موضوعي يستند إلى حقائق التاريخ وحقائق النصوص ذاتها). المصدر السابق ص ٣٩١، ٣٩٢ .

ويستتر هذا البغيض تحت عبارات يخادع بها ويبث بها كفره مثل: الموضوعية وحقائق التاريخ وحقائق النصوص، وهو أبعد مايكون عن كل ذلك وهو من جنس حجج الكافرين السابقين: {وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا} [الفرقان: ٥] {وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآۙ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ } [الأنفال: ٣١].

وها هو محمد أركون يتهكم بالمؤمنين الذين يؤمنون بأن الله خالق العالم ويصفهم بالأصوليين والأرثوذكس فيقول: (...موقف المتكلمين الفقهاء، أي الأصوليين الذين يدافعون عن الموقف الأرثوذكسي كما

حدده القرآن بأن العالم مخلوق من الله، وبين موقف الفلاسفة الذين قالوا بأزلية العالم ...) الإسلام والحداثة: ص ٣٤.

يقول نصر أبو زيد عن القرآن: (تتحدث كثير من آيات القرآن عن الله بوصفه ملكاً (بكسر اللام) له عرش وكرسي وجنود وتتحدث عن القلم واللوح، وفي كثير من المرويات التي تنسب إلى النص الثاني - الحديث النبوي - تفاصيل دقيقة عن القلم واللوح والكرسي والعرش، وكلها تساهم - إذا فهمت فهماً حرفياً - في تشكيل صورة أسطورية عن عالم ما وراء عالمنا المادي المشاهد المحسوس) المصدر السابق: ص ٣٩٢ .

ويقول أبو زيد: (...كان المعنى النقيض الذي ساد بعض الوقت ثم تم تهميشه بعد ذلك هو أن القرآن حادث مخلوق ارتبط إيجاده وإنزاله بحاجة البشر وتحقيقاً لمصلحتهم، ومن السهل أن ندرك أن هذا المعنى النقيض كان جزءاً من بنية فكرية أخرى تطرح رؤية للعالم والطبيعة والإنسان تتسم بالحيوية والديناميكية ... وغني عن القول: إن تلك الرؤية النقيضة هي التي أبدعت وأنجزت في مجال المعرفة العلمية تلك الإنجازات التي أفادت منها أوروبا.

وإذا كان معنى قِدم القرآن وأزلية الوحي يجمد النصوص الدينية ويثبت المعنى الديني، فإن معنى حدوث القرآن وتاريخية الوحي هو الذي يعيد للنصوص حيويتها، ويطلق المعنى الديني - بالفهم والتأويل - من

سجن اللحظة التاريخية إلى آفاق الالتحاق بهموم الجماعة البشرية في حركتها التاريخية... إن القول بحدوث القرآن يظل ذا أهمية تاريخية من حيث المعنى والدلالة... الذي ندعو إليه هو عدم الوقوف عند المعنى في دلالته التاريخية الجزئية، وضرورة اكتشاف المغزى الذي يُمكن لنا أن نؤسس عليه الوعي العلمي التاريخي .

إن النصوص الدينية ليست في التحليل الأخير سوى نصوص لغوية).

قضايا وشهادات ٢ صيف ١٩٩٠ م/ ١٤١. هـ: ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

أما النبوة: فكلامهم في هذا الصدد متنوع ومتعدد، بيد أن من أوائل من فتح لهم هذا الباب هو طه حسين الذي اصطنع الشك بل استنسخ الشك من ديكارت، ليسلطه على الحقائق الدينية والتاريخية، بل حتى على بعض المسائل الاعتقادية كما هو الشأن في هذه القضية التي نحن بصددها، وذلك حين ادعى أن القرآن والتوراة لا يكفيان حين يتحدثان عن إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تتحدث عن هجرة إسماعيل إلى مكة، والنتيجة المترتبة على ذلك من انتساب العرب المستعربة إلى إسماعيل، وادعى أن هذه القصص منتحلة وضعها اليهود الذين يستوطنون شمالي البلاد العربية، وأن القرآن إنّما اصطنع هذه القصص احتيالاً لإثبات الصلة بين الإسلام واليهودية أو بين القرآن والتوراة

والعرب واليهود. انظر: الصراع بين القديم والجديد ٢/ ١٩٥، ونقد كتاب في الشعر الجاهلي لمحمد فريد وجدي: ص ٧٦ .

وقد كتبت لجنة العلماء في مصر تقريراً مفصلاً عن كتاب «في الشعر الجاهلي» الذي ذكر فيه القول الشنيع عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وقد قررت اللجنة أن الكتاب (كله مملوء بروح الإلحاد والزندقة، وفيه مغامز عديدة ضد الدين مبثوثة فيه، لا يجوز بحال أن تلقى إلى تلامذة لم يكن عندهم من المعلومات الدينية ما يتقون به هذا التضليل المفسد لعقائدهم).

وبينوا (أنه إذا لم تكافح هذه الروح الإلحادية في التعليم ويقتلع هذا الشر من أصله وتطهر دور التعليم من اللادينية التي يعمل بعض الأفراد على نشرها بتدبير وإحكام تحت شعار حرية الرأي، اختل النظام وفشت الفوضى واضطرب حبل الأمن ؛ لأن الدين هو أساس الطمأنينة والنظام .

والكتاب وضع في ظاهره لإنكار الشعر الجاهلي، ولكن المتأمل قليلاً يجده دعامة من دعائم الكفر ومعولاً لهدم الأديان، وكأنه ما وضع إلاّ ليأتي عليها من أصولها وبخاصة الدين الإسلامي) انظر نص التقرير في: كتاب تحت راية القرآن: ص ١٦٧ - ١٧٢.

وحتى لا يكون الكلام مجرد نقل عن الناقدين لطه حسين فإنه لا بد أن نذكر قوله بنصه لتبيان حقيقة قوله الذي أصبح فاتحة شرّ لما هو أعظم من ذلك فيما بعد.

يقول طه حسين: (للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة). في الشعر الجاهلي: ص ٢٦.

ثم يقول طه حسين: (نحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة لإثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى) . في الشعر الجاهلي: ص ٢٦ .

ثم يضيف: (وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح) في الشعر الجاهلي: ص ٢٧.

إلى أن قال: (إذاً فليس [هناك] ما يمنع قريشاً من أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم كما قبلت روما أنها متصلة بإينياس بن بريام صاحب طراودة، أمر هذه القصة إذاً واضح، فهي حديثة العهد قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضاً، وإذاً فيستطيع التاريخي والأدبي

واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى) في الشعر الجاهلي: ص ٢٩.

ولا شك أن هذه الأقوال تتضمن معارضة صريحة للقرآن العظيم وتكذيباً للنصوص القاطعة وللرسول ﷺ الذي أوحي إليه من ربه: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧]، {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}. [الحج: ٢٦- ٢٧].

وهذا الذي قاله طه حسين عن القرآن هو عين الذي قاله المشركون في القرآن من قبل: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}. [الفرقان: ٤ - ٥].

لقد كان طه حسين طليعة المجترئين على حرب الوحي والرسل والرسالات، وما زال يعد عند الحداثيين والعلمانيين صاحب طريقة يجب أن تطاع وأن تسلك، فها هو الحداثي عزيز العظمة يستشهد بكلام طه حسين، ويجعله منطلقاً لرفض وصاية أهواء الماضي، واعتبره برنامج

عمل للفاعلية العقلانية التاريخية (الإسلام والحداثة: ص ٢٦٩)، وقائد الريادة للممارسة الفكرية المستقلة عن الماضي، واعتبر أن الذين ردوا على طه حسين في تلك النصوص الخطيرة يمارسون الردة ويعملون إلى إرجاع الأسطورة وإرجاع النص إلى مكانته المتعالية ورفض المساءلة، ثم ينتقد العظمة الذين أحجموا عن القيام بمثل ما قام به طه حسين (الإسلام والحداثة: ص ٢٧٠ - ٢٧١) .

ثم ختم مقاله بقوله: (إن عنوان الحداثة العلمانية في يومنا هذا هتك أساطير البداية، ووعي التاريخ والتأسيس فيه ومن سياقه العالمي، وإعادة الوصل مع كونية طه حسين مع مواضع أخرى حيث تعطل الوصل بيننا وبين الترقي الثقافي والعقلي الكفيل بإعادة الاعتبار للشرط اللازم للرقي في معانيه الأعم) (الإسلام والحداثة: ص ٢٧١).

وهذا ما ترسخ فعلاً في مشروعات أهل الحداثة والعلمانية فقد وجدوا أن الالتحاق بهذه المفاهيم هو أقرب الطرق لهدم الإسلام من خلال هدم أصوله ومصادره.

وهاهو شوقي عبد الحكيم في كتابه «موسوعة الفلكلور والأساطير العربية» يسرد أمورا هائلة من التطاول على ثوابت ومحكمات الدين الإسلامي، حيث أدخل في الأساطير أموراً ثابتة في القرآن والسنة، ومن ذلك أنه خصص مبحثاً عن جبريل - عليه الصلاة والسلام - باعتباره

أسطورة من الأساطير العربية، فقال: (جبريل في المثيولوجيا العربية هو رئيس ملائكة الرحمة، وأحد الملائكة الثلاثة المصرح بذكرهم في القرآن، اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل «والأخير هو إسرافيل، أحد حملة العرش»، يصف جبرائيل بقوله: «وهو الذي ينفخ في الصور نفخات ثلاث، أولاهن نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالث نفخة البعث» كما صوره النبي محمد بقوله: «جبريل في صورته وله ستمائة جناح، وكل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه التهاويل» وهو الذي أسرى بالنبي محمد إلى السماء السابعة، وقالوا: «إنه من شدة قوته رفع مدائن قوم لوط وكن سبعاً بمن فيهن من الأمم ... ويظهر جبريل في أساطير الخلق الثلاثة العبرية والعربية وعند الفلاشا، كأحد رسل الله الثلاثة لإحضار الطين المقدس من المياه الفطرية حين أراد الله تشكيل العالم والإنسان) إلى آخر ما جاء في كلامه وهو طويل.

موسوعة الفلكلور والأساطير العربية لشوقي عبد الحكيم: ص ١٩٨.

وقد ساق (أدونيس) كلام صِنوه ابن الراوندي في جحد النبوة وامتدحه، وشرح كلامه في ذلك وفي تهكمه بشرع الله ورسوله وبالعبادات والأحكام، ثم يتعرض للمعجزات جاحداً ساخراً متهكماً قال أدونيس: (ثم يرد المعجزات المنسوبة إلى النبي كحديث الميضأة، وشاة أم معبد، وحديث سراقة وكلام الذئب، وكلام الشاة المسمومة،

ويسخر من معجزة الملائكة الذين أنزلهم الله يوم وقعة بدر لنصرة النبي، قائلاً: «إنهم كانوا مغلولي الشوكة، قليلي البطشة على كثرة عددهم، واجتماع أيديهم وأيدي المسلمين، فلم يقدروا على أن يقتلوا زيادة على سبعين رجلاً» ثم يتساءل: «أين كانت الملائكة في يوم أحد لما توارى النبي ما بين القتلى فزعاً، وما بالهم لم ينصروه في ذلك المقام ؟» وابن الراوندي هنا لا ينتقد المعجزة بذاتها وحسب، وإنّما ينتقد كذلك المنطق الداخلي المتهافت، الكيفي، لدى القائلين بها، فإذا كانت المعجزة هنا نصراً من الله يجيء في وقت الحاجة إليه، فإن حدوثها في الحالات الأكثر حرجاً وضيقاً أولى من حدوثها في الحالات الأقل حرجاً وضيقاً، ثم يحاول ابن الراوندي أن ينتقد النبي في الفكر والعمل قاصداً من وراء ذلك إبطال دعواه النبوة) . الثابت والمتحول ٢ - تأصيل الأصول ٧٥.

يقول أدونيس: (في الشرق حروب مسعرة تحت راية نص ديني أصيل، والإنسان العربي يقاتل دفاعاً عن مبادئ لايؤمن بها، فهو جندي في خدمة الأوهام، يستميت لتوطيد قيوده .

وهذه الدعوات للتقيد بحرفية النصوص قد تعنف وتتعاظم، خاصة أن الشعوب عامة تزداد تقبلاً للطروحات العقائدية والتصورات الخرافية أو ما شابه.

أوليست هذه النصوص أسساً ودعائماً لدولة إسرائيل ؟

وللنصوص العربية دور مماثل.

ما النصل الأصيل؟

حسب التفسير الشائع - في الدين اليهودي والمسيحي والإسلامي - النص عالم تزول معه الإرادة الإنسانية أمام إرادة الله، فأي معنى يبقى لعالم فقد إنسانه واحتفظ بالله والنص؟ إذ إن جوهر الإنسان في غده وليس في ماضيه .

فجذوره مهيار في خطواته، والإنسان لم يجد هويته يوم صاغ لغته فحسب، وإنّما وجد أصله، فمهيار نقيض كل نظام قائم على نصوص أصيلة، اتخذ الحرية مقراً، والديمقراطية الاشتراكية عقيدة لا يقبل بأصل غير الإنسان)(رأيهم في الإسلام : ص ٣٤ - ٣٥ .)

وكلامه في النبوة كثير مضمونه إن:

إن النبي ابن المجتمع ونتاجه، والوحي له أسبقية عند العرب تتمثل في الكهانة والشعر من حيث أن هذه جميعاً فيها اتصال الإنسان بغير الإنسان، وإلغاء الكهانة يؤدي إلى إلغاء الأساس الوجودي والمعرفي لظاهرة النبوة، وظاهرة الوحي استندت إلى مفهوم عميق في الثقافة وهو إمكانية اتصال بين البشر وبين العوالم الأخرى من الملائكة والشياطينَ. انظر مفهوم النص: ص ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٥٩، ١٤٤ .

التشكيك في أمية النبي ﷺ، والقول بأنه كان حائراً بعد مجيء الوحي أول مرة إليه، وأنه كان يتشوف إلى ما يطمئنه على صحة قواه العقلية. مفهوم النص: ص ٧.، ٧١ .

يقول أدونيس: (في الشرق حروب مسعرة تحت راية نص ديني أصيل، والإنسان العربي يقاتل دفاعاً عن مبادئ لا يؤمن بها، فهو جندي في خدمة الأوهام، يستميت لتوطيد قيوده .

وهذه الدعوات للتقيد بحرفية النصوص قد تعنف، وتتعاظم خاصة أن الشعوب عامة تزداد تقبلاً للطروحات العقائدية والتصورات الخرافية أو ما شابه .

أوليست هذه النصوص أسساً ودعائماً لدولة إسرائيل؟

وللنصوص العربية دور مماثل.

ما النصل الأصيل؟

حسب التفسير الشائع - في الدين اليهودي والمسيحي والإسلامي - النص عالم تزول من الإرادة الإنسانية أمام إرادة الله، فأي معنى يبقى لعالم فقد إنسانه واحتفظ بالله والنص؟ إذ أن جوهر الإنسان في غده وليس في ماضيه.

فجذوره مهيار في خطواته، والإنسان لم يجد هويته يوم صاغ لغته فحسب، وإنّما وجد أصله، فمهيار نقيض كل نظام قائم على نصوص أصيلة، اتخذ الحرية مقراً، والديمقراطية الاشتراكية عقيدة لايقبل بأصل غير الإنسان) رأيهم في الإسلام : ص ٣٤ - ٣٥ .

وممن يعتبر عند بعض الدراسين من المعتدلين في الحداثة، إحسان عباس!! الذي تحدث في كتابه «اتجاهات الشعر العربي» عن الأسطورة في الشعر المعاصر وكيف استخدمها الشعراء، وضرب لذلك أمثلة عديدة، وجعل منها المسيح ويحيى - عليهم الصلاة والسلام - والخضر وأخبار الإسراء والمهدي المنتظر، كلها عدها من الأساطير. انظر اتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ١٢٨ – ١٢٩.

ويقول عبد الوهاب المؤدب: (وكان التوحيد قد اخترق الجزيرة العربية في صيغته اليهودية والمسيحية، فكان بعض اليهود والمسيحيين ينتظرون موسى آخر وربما وجدوه بشخص محمد، إذ كان رجل ثقافة واسعة وتفهّم كبير فشعر أن شعبه جاهز للانصاط (هكذا) على أهبة الاستعداد للفتح، فخط التوحيد بلغة الضاد، وأقام وحدوية رمزية تتسم بطابع الآنية كحافز لانطلاقة العرب، وأن تتخذ تلك الوقائع، الأسطورة هالة لها، فالأمر طبيعي .

قلت: إن محمداً كان رجل ثقافة، فلماذا ادّعوا أنه أمي، لا يقرأ ولا يكتب؟ أمِن أجل إضفاء مصداقية أكبر وشرعية أعظم تزيد الرسالة نفاذاً في النفوس؟ فكل كلام علمي يتلفظ به أَمي، لا بد من أن يتجاوز قائله ليصبح مصدره إلهياً) رأيهم في الإسلام : ص ٢٢٥ . والقول لعبد الوهاب المؤدب .

ومن أمثلة ذلك أن السياب عد وحي السماء أساطير بالية تجر القرون بمركبة من جنون ولظى وغبار السنين، يقول:

(أساطير، مثل المُدى القاسيات
تلاوينها من دم البائسين
فكم أومضت في عيون الطغاة
بما حملت من غبار السنين!
يقولون: وحي السماء
فلو يسمع الأنبياء
لما قهقهت ظلمة الهاوية
بأسطورة بالية
تجر القرون

بمركبة من لظى، في جنون
لظى كالجنون!). ديوان السياب: ص ٣٤ .

وفي قصيدة «المومس العمياء» التي يقولون فيها بأنها إعلان انفصاله عن الشيوعيين، يتحدث عن مجموعة من البغايا يبحثن عن رجال، ثم يقول في استخفاف بالأنبياء وجحد لهم يعبر عنه بلفظ الاندحار:

(والسور. بمضغهن ثم يقيئهن ركام طين
نصباً يخلد عار آدم واندحار الأنبياء). ديوان السياب: ص ٥٢٩.

وفي مقطع آخر يعلن عقيدته في الأنبياء وفي نبوة محمد ﷺ فيقول:

(كفرت بأمة الصحراء
ووحي الأنبياء على ثراها في مغاور مكةٍ أو عند واديها). ديوان السياب: ص ٦٤٢.

٢-المستوى الأفقي (المستوى التطبيقي).

أ- الاعتقادي (أركان الإيمان الستة).

ب- التشريعي.

ج- العبادي.

أ- الاعتقادي (أركان الإيمان الستة):

وعليها سأقتصر في هذا المدرك:

١- الإيمان بالله:

في هذا الصدد يقول حسن حنفي الذي يعد عند بعض العلمانيين والحداثيين من أصحاب التوجه الإسلامي المستنير!! يقول في ندوة عقدت في لندن بعنوان «الإسلام والحداثة» عام ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩م: (إن العالم مقسوم إلى قسمين: الله والعالم فينعكس ذلك حتماً في المجتمع، على السلطان على الحاكم والمحكوم، وسينعكس في الأسرة على الرجل والمرأة، والسؤال الموجه لك هو: أن هناك ثلاثة اختيارات، اختيار حركة تحرر المرأة... في البداية لتحرير المرأة من الرجل، وهناك المثقف العلماني الذي يبدأ بتغيير النظام السياسي، وهناك الذي يحاول تثوير الدين، ما لم نقضِ على هذا التصور الثنائي للعالم ورؤية العالم بين الحاكم ومحكوم، وعلى المستوى الديني بين خالق ومخلوق، فلن تستطيع حركات تحرر المرأة أن تفعل شيئاً، ولن يستطيع المثقف العلماني أن يؤدي دوره ما لم نقضِ على هذا التصور، هذا السؤال الأول في آليات التغيير). الإسلام والحداثة: ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

ويعد علماني آخر -وهو اللبناني عادل ظاهر- أن قضية لزوم تطبيق حكم الله في الأرض مرتبط في عقيدة المسلم بإيمانه بوجود الله الخالق، وأن هذا الاعتقاد هو الذي يشكل الرباط المعرفي والأسبقية الاعتقادية

التي ينبني عليها القول بلزوم انضواء السياسة تحت الإسلام، كما يقول بذلك علماء ودعاة الإسلام اليوم، ومن ثم يشير هذا الكاتب إلى مايجب استبعاده من منظومات عقائد المسلم، باعتبارها الأساس للقول بوجوب الحكم بشرع الله في سائر نواحي الحياة وهي القضية التي يسعى لمحاربتها، ويرى أنه لا يُمكن استبعادها إلاّ باستبعاد أساسها الاعتقادي، فيقول: (...إن الكلام على الماهية العقدية للإسلام هو كلام على ذلك الاعتقاد الذي له أسبقيته ومنطقية على الاعتقادات الدينية الأخرى للمسلم، إن أسبقيته المنطقية يحتّمها كونه الأساس الأخير لكل اعتقاد آخر للمسلم. إنه ما ينبغي أن نلجأ إليه في نهاية التحليل، لنقرر ما الذي يتحتم استبعاده أو عدم استبعاده أو لا يتحتم استبعاده من منظومة اعتقادات المسلم الدينية، ومعيار الاستبعاد أو عدم الاستبعاد، هو معيار منطقي في المقام الأول)(كتاب الحداثة والإسلام، من مقال للبناني عادل ظاهر بعنوان (الإسلام والعلمانية): ص ٧٤ - ٧٥) .

إلى أن يقول: (ولكن أي اعتقادات المسلم هو الاعتقاد المؤهل لاحتلال هذا الوضع الإبستمولوجي الفريد في المنظومة الاعتقادية للمسلم؟ إنه لا شك الاعتقاد بوجود خالق أزلي كلّي الحضور، واحد أحد لكل شيء، خالق واجب الوجود وكلّي العلم وكلي الخير وذي حرية تامة

ومصدر للإلزام الأخلاقي، إن أي اعتقاد آخر يتعارض معه مستبعد بالضرورة من المنظومة الاعتقادية للمسلم...) (المصدر نفسه ص ٧٥) .

وبعد سفسطات سخيفة يقول: (هل يُمكن أن يكون الله ذو الطبيعة المسندة إليه من قبل الإسلام كائناً يُمكن أن يأمر البشر بأن يقيموا دولتهم على أسس معينة لا سواها بغض النظر عن ظروفهم الزمانية والمكانية؟ هل يُمكن لكائن له طبيعة الله أن يفرض على المؤمنين في كل عصورهم وأممهم ألا يفصلوا بين دينهم والسياسة ؟ ...) (المصدر نفسه ص ٧٥) .

كما يحلو لمحمد أركون أن يعبر بلغة جارفة ساخرة تبعاً لتعبيرات معلميه في فرنسا وغيرها. ففي سياق انتقاده للغة العربية ووصفه لها بأنها منغلقة ونائمة ومتخشبة، وامتداحه للغة وفكر الغرب يتساءل بعد إيراده للفظ فرنسي إلحادي يقول: (... فكيف نعبر عنه باللغة العربية؟ هل نقول مشكل الله أو مشكلة الله؟).

ثم يعقب بأن هذا التعبير يقابل بالاندهاش والاستنكار عند العرب في حين أنه تعبير عادي في اللغة الأوربية الحديثة. (الإسلام والحداثة: ص ٣٤٣).

ثم ينسلّ إلى مقصده الرئيسي الذي ذكره سابقاً فيما يتعلق بالله تعالى، فيقول عن العربي: (... لا يُمكن أن يتصور إمكانية طرح مشكلة فكرية حول الله أو مناقشة فكرية حول وجود الله، والسبب هو

أن الخطاب القرآني يملأ مشاعره كمسلم أو كعربي بوجود الله، إنه يملأ أقطار وعيه ومشاعره إلى درجة أنه لا يبقى في وعيه أية مساحة لإثارة مناقشة فكرية حول وجود الله). الإسلام والحداثة: ص ٣٤٤ .

أمّا لماذا كل هذا التبجح بالإلحاد ؟ فأمر يجيب عليه أحد نقاد الحداثة قائلاً: (لعل إشكالية الحداثة هي الأكثر لبساً بين الإشكالات الفكرية والثقافية والفنية التي شهدتها لوحة الثقافة العربية الراهنة .

ويبدو أن هذا اللبس والغموض المحيط بها ليس سمة الحداثة في حقل تداولها الاصطلاحي والدلالي العربي فحسب، بل هي ولدت في سياقها الغربي متلبسة باللبس والشك والقلق، والعقل المزدحم بتمزقاته وانشراخه... حيث لا أفق سوى العدمية والاستلاب بعد إعلان نيتشه موت الله وموت الجمال معه، والفن لم يعد يعوض عن الحياة بل يساهم في تعميق الاستلاب نحوها، فسيموت الفن تاركاً إيّانا في العراء ...

إن الباحث وهو يجهد لاكتشاف خصائص ومميزات الحداثة وسط العوالم القاحلة والعراء الروحي إلاّ من الشمس السوداء، وقمر الكارثة الشاحب، لابد أن يقر بصعوبة الإحاطة بكليتها عبر تناقضاتها وتفتت رؤيتها لذاتها وللعالم ... وهي إذ تطمح لإلغاء الطبيعة عبر تشييئها التقني لا تلبث أن تنتحب حنيناً إلى فردوس الطبيعة المفقود، فقد اغتالت الله والجمال والأخلاق والفن وراحت تندب وترثي ما اجترحته يداها .

إنها وعي المتاهة إذ تغدو المتاهة هي الحقيقة الواقعية الوحيدة بعد أن مات الإنسان بموت الله عبر قرون من تلاشيه التدريجي ...) .

قضايا وشهادات ٢/ ٢٧٥ - ٢٧٦ من مقال لعبد الرزاق عيد بعنوان (الحداثة: عقيدة الأفاعي)، وفيه ثناء وإطراء للماركسية والزعم أنها أبدية وأنها العقلانية الوحيدة، ويتوقع مستقبلاً زاهراً لها ويثني على الحداثة ورموزها وطموحاتها .

واقتصر هنا على جزء من توحيد الربوبية وهو وجود الله -تعالى- أما باقي قضايا الربوبية وتوحيد الألوهية والأسماء والصفات فلهم فيه كلام أبشع وأشنع.

٢- الإيمان بالملائكة:

مِن أظهر الذين جحدوا وجود الملائكة علاء حامد في روايته (مسافة في عقل رجل)، حيث يجعل الإيمان بالملائكة ثمرة للإيمان بالله الذي يرى أن نفيه هو الذي سيؤدي إلى نفي كل ما يترتب عليه من غيبيات، فيقول: (... من الأهمية بمكان أن نشذب فكرة وجود الله من أغصانها السرطانية بالالتجاء لقفص العقل، ورفض توارث فكرة وجود الله ... إن الإيمان بوجود الله من خلال الأديان والتي تطالب الإنسان أيضاً بالإيمان بأمور تتخطى نطاق التفكير وتربط قضية وجود الله بهذه الأمور ارتباط الجنين بالمشيمة والجذر بالتربة، فطالما آمن الإنسان بوجود

الله عن طريق الأديان فعليه تقبل كل ما يتصل بوجود هذا الإله من جنة ونار وشياطين وملائكة وجن صالح وجن طالح وإبليس ومعاونيه؛ حتى لا يجرفه الإنكار إلى النار المحرقة). مسافة في عقل رجل: ص ١٩١.

أمّا صلاح عبد الصبور فإنه يذكر ملك الموت في صورة أخرى من التهكم والاستخفاف قائلاً:

(وفي مساء واهن الأصداء جاءه عزريل

يحمل بين أصبعين دفتراً صغيراً

ومد عزريل عصاه

بسر حرفي «كن» بسر لفظ «كان»

وفي الجحيم دُحرجت روح فلان

يا أيها الإله!

كم أنت قاسٍ موحش يا أيها الإله!). ديوان صلاح عبد الصبور: ص ٣١.

٢- الإيمان بالكتب:

أثناء قراءة كتب ومقالات أعداء الوحي من المستغربين من أبناء المسلمين يجد الباحث أنهم لم يخرجوا عن المفهوم الغربي في دراستهم لدين الإسلام، ولذلك تجدهم يرددون بإمعيّة كاملة ألفاظ ومصطلحات

أساتذتهم فيطلقون على الوحي مصطلح «ميثولوجيا» أي: مجموعة الأساطير التي تعمل على فك مستغلفات الحياة والموت، ويجعلون المنهج «الميثولوجي» أساس دراستهم، باعتباره علماً يعالج تصنيف المعتقدات ويحللها ويقارنها وفق المفهوم الغربي بطبيعة الحال .

وأحياناً يسمون نصوص الوحي «الميثات» جمع «ميث» وهي الأسطورة والقصة الخرافية التي يسودها الخيال، وإذا تكلموا عن الدين أطلقوا عليه اسم «ثيولوجي» وهو مصطلح يعني اللاهوت بالمفهوم الغربي النصراني واليهودي، ويعرفونه بأنه علم يبحث في وجود الله وذاته وصفاته، ويسمى أيضاً «ثولوجيا» وعلم الربوبية والإلهيات، واللاهوت الطبيعي يعتمد على التجربة والعقل وحدهما دون الرجوع إلى النقل، ويقابله عندهم اللاهوت المنزل ويعتمد على النصوص المقدسة.

وإذا تعرضوا لدراسة الوحي ونصوصه تخاطروا بألفاظ تلقوها عن أساتذتهم، وتنافروا بالمصطلحات الغربية على أساس أنها هي الحق والحقيقة والعلم، من أمثال «الفيلولوجيا» وهي الطرق التي تستهدف إنجاز نص، وتسهيل قراءته ونقده، ودراستها النقدية من خلال الوجهتين التاريخية والمقارنة. (انظر: الفيلولوجيا في: معجم المصطلحات المعاصرة لعلوش: ص ١٧١).

وقد استخدموا هذا المنهج النقدي تبعاً لسينوزا وغيره، وحاولوا من خلال هذا النقد هدم نصوص الكتاب والسنة كما فعل الغربيون في الكتب المحرفة، أو التشكيك في ثبوتها وصحتها أو في مدلولاتها القطعية، كما أنهم استعملوا لهذا الغرض الأخير منهج التأويل المعاصر الذي يطلقون عليه مصطلح «هرمنيوطيقيا» وهي طريقة تأويل، تدرس المبادئ المنهجية في التعامل مع النصوص وتفكيك رموزها وكشف أغوارها، وتستهدف في ميدان الوحي - الذي هو أهم ميدان للهرمنيوطيقيا - الدراسة التأويلية للرموز والاستعارات، وتعني استخلاص المعنى الكامن انطلاقاً من المعنى الظاهر، أو الانطلاق من المعاني المجازية بحثاً عن المعاني الحقيقية .

وقد استخدم هذا المصطلح في أول الأمر في دوائر الدراسات اللاهوتية ليشير إلى مجموعة القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني «الكتاب المقدس» عند الأوروبيين من يهود ونصارى، ثم اتسع مفهوم هذا المصطلح ليشمل كل العلوم الإنسانية، غير أن الحداثيين والعلمانيين في سياق تبنّيهم لسبينوزا ومناهجه، توجهوا إلى الوحي من كتاب وسنة لدراسته على أساس المنهج التأويلي «الهرمنيوطيقي» حسب مفهوم تعبير الغربيين، وتعريب المستغربين (انظر عن «الهرمنيوطيقيا»: معجم المصطلحات الأدبية لسعيد علوش: ص

٢٢٤ - ٢٢٥، ومعجم المصطلحات والشواهد الفلسفية: ص ٩٠ - ٩١، وإشكاليات القراءة وآليات التأويل لنصر أبو زيد: ص ١٣، ٢٠، ٢٧، ٣٠، ٤٤).

ومن المصطلحات التي تقمصها المنهزمون من أبناء المسلمين في دراستهم للوحي مصطلح «التاريخية» أو «التاريخانية»، وقد أغرم بهذا المصطلح إلى حد التقديس محمد أركون ونصر أبو زيد، ويفضل أركون استخدام التاريخية ويفصل بينها وبين التاريخانية، على اعتبار أن التاريخانية هي التي تقول بأن كل شيء أو كل حقيقة تتطور مع التاريخ وتهتم بدراسة الأشياء والأحداث من خلال ارتباطها بالظروف التاريخية، ويرى أركون بأنه يجب تجاوز هذا المعنى إلى «التاريخية» التي تسمح وحدها بتجاوز الاستخدام اللاهوتي أو القومي، وبشكل عام الإيديولوجي للتاريخ. (انظر: الفكر الإسلامي قراءة علمية لأركون: ص ١٣٩).

ويتعامل المستغربون مع الوحي على الطريقة الغربية، باعتباره فكرة من الأفكار، ويدرسون كيفية انتشاره، والنزعات التي أثرت في وجوده وتطوره، مستبعدين قضية عصمة الوحي وعصمة المبلغ ووحدانية الموحي والآمر به، ثم يصدرون بناء على دراسة الظروف والملابسات والأوضاع التي مرت بها نصوص الوحي - وفق معلوماتهم، وحسب أغراضهم ومقاصدهم - الأحكام على النصوص وخاصة القرآن عند المستغربين من أبناء الشرق، ويطبقون سائر مقتضيات هذا المنهج

«التاريخي» على نصوص الوحي بصورة تدل على اعتقادهم العميق بعصمة وصحة هذا المنهج، وهم في «التاريخية» و «الهرمنيوطقيا» أتباع مخلصون لفلسفة مارتن هايدغر، ومتعصبون للمنهج التاريخي، ويعتبرون أن المعرفة التاريخية هي الأداة الأساسية لدراسة النصوص والمصير الإنساني، ويرون أن المنهج التاريخي قادر على الكشف .

من الأمور التي تعرّض لها أركون في دراساته «السوربونية» دراسة الوحي ونصوصه على ضوء عقيدة خاصة، ليست عقيدة، الإسلام، قال عنه مؤلفا كتاب «رأيهم في الإسلام»: (صاحب عقيدة واثق من صلابة تفكيره وصواب رأيه، ووضوح مواقفه...، يحافظ على اتصال دائم مع التطور الغربي، مخاصماً مسلمين كثر، فوجئوا وصدموا باستعماله، في خواطره وأبحاثه التاريخية نظريات استوحاها من حياة القرن العشرين وأوروبا، وعلم اللغات وتحاليل اجتماعية وأصول تنظيمية، همه الأوحد تطهير رؤى هؤلاء لإسلامهم من الخرافات والأوهام والشوائب التي تشوبها...، فإعادة النظر بمجموع التقاليد الإسلامية لتوحيدها وكشف الرواسب المتراكمة التي عثَّرتها منذ الدعوة القرآنية، هي موضع اهتمام محمد أركون كما المصلحين المحدثين، مصدرها سلطان النص المطلق، وشرعية هذا السلطان الذي لا يخلو من تعصب نظري، فينبغي أن تؤدي الثقة العارمة بالنص إلى التقليل من أهمية

التجدد في النظرة - أكانت شرقية أم غربية -إلى الإسلام، التي تواكب عمل أبرز أخصائي مسلم بالدين، ولا ريب، لغته فرنسية) رأيهم في الإسلام : ص ١٤٥ - ١٤٦ .

يتحدث أركون عن التاريخية والهرمنيوطيقيا التي يدرس على ضوئها ثبوت القرآن وسيادته، ويتحدث أن سلطته جاءت من الدولة الأموية التي جعلته مصدر السلطة العليا فيقول: (... إنه عائد إلى الدولة الرسمية التي وضعت منذ الأمويين بمنأى عن كل دراسة نقدية، لأنها أرادت أن تجعل منه مصدراً للسيادة العليا والمشروعية المثلى التي لا تناقش ولا تمس، لقد فرضت هذه الوظيفة السياسية للقرآن نفسها منذ أن تم تشكيل المصحف) (الفكر الإسلام ي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٥١).

وواضح أنه لا يرى للقرآن قداسة ولا أحقية في السيادة، وأنه لم يمتلك هذه الأحقية لكونه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كما يعتقد كل مؤمن، بل يرى أن هذه السيادة والأحقية نالها القرآن بالفرض السياسي منذ أن تم جمع المصحف .

ويتحدث أركون في موضع آخر من كتابه عن ما يسميه «ظاهرة التقديس» للقرآن العظيم، فيرى أنها من ممارسة (الذين يستمتعون في اجترار نفس الكلام بسبب الكسل أو الجهل) (الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٥٨ .)، ويرى أن المشروع الأسمى هو أن

(نجمد كالأقنوم عامل التقديس الموجود في القرآن والأناجيل والتوراة) (الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٦٦) وإنه لا بد من (بلورة نظرية مُرضية لظاهرة التقديس، أو لانبثاق ظاهرة التقديس ومنشئها ومسارها داخل الوعي، ودعاماتها المتغيرة في الوجود البشري، فإننا عندئذٍ نكتشف أن مشاكل الصحة والموثوقية أو الاختراع والتحريف الذي لحق بالنصوص المتلقاة على أنها مقدسة، أقول: نكتشف بأن هذه المشاكل ثانوية في الحقيقة. إن منطق الثالث المرفوع «منطق الصحة أو اللاصحة» يبدو عندئذٍ تافهاً لا أهمية له؛ لأننا نكتشف قارات أخرى من الحقيقة النفسية واللغوية والتاريخية للإنسان، كانت هذه القارات قد طمرت أو طمست وأزيحت من ساحة البحث والتفكير عن طريق ثيولوجيا من نوع منطقي - مركزي ...) (الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٥١) .

إن اطّراح أركون لقضية الصحة والموثوقية لنصوص الوحي واعتبارها قضية تافهة لا أهمية لها، مجرد دعوى يغطي بها مقصده من منهجيته القائمة على دراسة «التقديس» أو تجميد التقديس من خلال ما يسميه الحقيقة النفسية واللغوية والتاريخية بعيداً عن أي نظرة دينية أو حسب تعبيره: (ثيولوجية)، إن هذه الالتفافة البعيدة سوف يصل من خلالها إلى إسقاط صحة وموثوقية النص القرآني المقصود بدراسته، وهذا ما يحاول

فعله حقيقة تحت أردية الألسنة والتاريخية ؛ لأن إسقاط القداسة أو تجميد القداسة سوف يؤدي إلى جعل القرآن مثل أي كلام بشري، فلا حرمة له ولا مكانة، ويُمكن مناقشته بنيوبياً كما يدعو نصر أبو زيد، أو ألسنياً كما يدعو أركون، وبذلك ينزلونه في سوق تلاعباتهم الفكرية التي لا تصلح لدراسة كلام شاعر أو أديب لما فيها من التناقض والفوضوية، فضلاً عن دراسة كلام الله العزيز الحميد .

وفي موضع آخر يتكلم عن صحة القرآن وثبوته باعتباره مجرد فرضية (انظر الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٦٦) .

ثم يتكلم أركون عن أن الخطاب الإسلامي لم يستطع التوصل إلى التمييز في القرآن ونصوص الوحي بين الأسطورة والتاريخ، وإنه (أي: الخطاب الإسلامي المعاصر): «لا يزال بعيداً جداً عن تاريخانية القرن التاسع عشر الأوروبية التي توصلت إلى تهميش العامل الديني والروحي المتعالي وحتى طرده نهائياً من ساحة المجتمع، واعتباره يمثل إحدى سمات المجتمعات البدائية». المصدر السابق: ص ٦٨ .

ويصف أركون قصة أصحاب الكهف بأنها أساطير (الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٨٤) .

ويعيد الكلام عن الخطاب الإسلامي المعاصر فيصفه بأنه (الذي يزعم أنه يحرك التاريخ المعاصر، ويجد له من جديد ديكتاتورية الغاية المثلى

على طريقة الإسلام البدائي، هذا الخطاب هو خطاب أيديولوجي، مغلق على البعد الأسطوري والرمزي ذي الأهمية الحاسمة جداً في القرآن) (الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ١٠٩.) .

يقول أركون: «العقل الدين ... يشتغل داخل إطار المعرفة الجاهزة، ويستخرج كل المعرفة الضخمة استناداً إلى العبارات النصية للكتابات المقدسة من قرآن وأناجيل «توراة»، وإذن فالعقل الديني بطبيعته عقل تابع لا مستقل، وبالتالي فهو لا يطرح مشكلة أصل الوحي المعطى، أو معطي الوحي: أي الوحي كظاهرة موضوعية موجودة بغض النظر عن مشاعرنا الذاتية، تماماً كوجود الظواهر الفيزيائية أو البيولوجية ...، ومن هنا جاء تقديس الشريعة والقانون الإسلامي واعتباره فوق البشر والتاريخ» . الإسلام والحداثة ص ٣٣٨ .

ويتصدى الصادق النيهوم - كعادته - للإسلام ومصدره الأول القرآن العظيم، ثم للمصدر الثاني السنة المطهرة، فيقول: (ميزة كل كتاب مقدس، أن معلوماته تصبح تلقائية غير قابلة للجدل، وهي ميزة مفيدة - فقط - إذا كانت المعلومات نفسها حقائق نهائية...، أسطورة تعلن أن المرأة نفسها مجرد مخلوق جانبي صنعه الرب من ضلع آدم، وهي ترجمة سحرية لحكمة تريد أن تقول: مكان المرأة إلى جانب الرجل.

وإذا كان الحجاب قد أصبح الآن فريضة إسلامية، يدعو إليها الوعاظ علناً باسم الإسلام، فإن هذه الدعوة ليس مصدرها النص القرآني بل مصدرها أن الواعظ المسلم يتكلم لغة عبرانية من دون أن يدري، فمن مطلع القرن الهجري الأول كان الفقه الإسلامي يتلقى علومه بحماسة كبيرة في مدرسة التوراة، وكان موضوع الطمث قد أعيد إلى خانه «النجاسة» من جديد، فتحولت المرأة المسلمة خلال فترة الطمث إلى امرأة «غير طاهرة» مرة أخرى، وعمد الفقهاء إلى إبطال صلاتها وصيامها طوال أيام المحيض، في فتوى لا تستند إلى نص القرآن بل تستند إلى قول التوراة «كل شيء مقدس لا تمس، وإلى المقدس لا تجيء»... فحجاب المرأة ليس شريعة من أي نوع بل منهجاً تربوياً مكتوباً بلغة السحرة، قاعدته النظرية أن «المرأة مخلوق نجس» وقاعدته العملية أن تقنع المرأة نفسها بقبول هذه الشخصية، وهي كارثة تحققها فكرة الحجاب ...، فالمرأة المحجبة لا تخفي نفسها كالطفل داخل عباءة ؛ لأنها امرأة ورعة بل لأنها امرأة مسحورة، تعرضت لحرب نفسية رهيبة، شنها السحرة ضدها طوال ثلاثة آلاف سنة، ضمن خطة تربوية مكتوبة بلسان أكبر ساحر في العالم، وقد نجم عن هذا الضغط الهائل شل عقل المرأة وتدنيس جسدها، وأتاح إدانتها - شرعياً - بأنها «ناقصة عقل ودين» وأحالها إلى مخلوق مريض في حاجة ماسة إلى

رحمة الله إن الحجاب فكرة فظيعة إلى هذا الحد) مجلة الناقد - العدد ١٣ تموز ١٩٨٩ م/ ١٤٠٩ هـ: ص ٦ – ٧.

٣- الإيمان بالرسل:

مرّ معنا في الكلام السابق شيء من موقفهم من الوحي والكتب المنزلة، من تكذيب وتشكيك وسخرية واستهزاء ومضادة ومعاندة.

وما قالوه هناك في الكتب ينطبق على ما قالوه في الرسل الكرام لتلازم ما بين الأمرين في الأصل؛ ولأن الحداثيين تلقوا الانحراف في الرسل والكتب على السواء، باعتبار التلازم الذي بينهما، ثم إن أساتذتهم الذين أخذوا عنهم هذه الانحرافات تعرضوا للكتب والرسل معاً، وكذلك فعل التلاميذ .

والكلام هنا امتداد تفصيلي - بعض الشيء- لما سبق، وفي كلامهم أوجه عديدة من انحرافهم في الرسل والرسالات، ومنها:

١ - جحد الرسالات والتشكيك في وجود الرسل وفي صدقهم.

٢ - البغض والاستهانة والسخرية بالرسل وأعمالهم وأقوالهم.

٣ - جعل الرسل والرسالات مناقضة للعقل وسبباً للتخلف.

٤ - القول في الرسل بأقوال الديانات المحرفة.

٥ - إطلاق أسماء وأوصاف وخصائص الرسل على غيرهم.

ولضيق المقام سنأتي بشواهد لبعض هذا وسأبدأ بمن يعتبر عند بعض الدارسين من المعتدلين في الحداثة، وهو إحسان عباس! وقد تحدث في كتابه «اتجاهات الشعر العربي» عن الأسطورة في الشعر المعاصر وكيف استخدمها الشعراء، وضرب لذلك أمثلة عديدة، وجعل منها المسيح ويحيى - عليهما الصلاة والسلام - والخضر وأخبار الإسراء والمهدي المنتظر، كلها عدها من الأساطير (اتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ١٢٨ - ١٢٩).

وسوف أعرض هنا نموذجاً للفكر الملوث القائم على المغالطة والافتراء الجريء على الحقائق الثابتة، وهذا يعطينا تصوراً عن نوعية القوم الذين يريدون أن يهدموا دين الإسلام بسواعدهم الضعيفة وأفكارهم الكليلة، ويعطينا صورة عن الموضوعية المدعاة والعقلانية المزعومة، يقول أحدهم: (إن سمو التوحيد - كل توحيد - يتطلب برهاناً كما الوثنية ؛ لأنها إنشاءات تقام على افتراضات) (رأيهم في الإسلام: ص ٢٢٤، والقول لعبدالوهاب المؤدب من المغرب العربي).

وإذا نظرنا في تقسيم التدين فإنه لابد أن يكون: إمّا توحيداً؛ وهو كَمِلّة أهل الإسلام، وإمّا وثنية؛ كمن عداها، حتى ولو كان صاحبها يدعي الإلحاد وعدم الإيمان بشيء فإن ذلك في حد ذاته وثنية .

وبما أن القائل يعيش الوثنيات المعاصرة ويتلبس بمفهوماتها فهو لا يحتاج إلى برهان في وجودها ووجود أتباعها، إذن هو يتطلب برهاناً للتوحيد الذي يبدو أنه يجحده أو يشك فيه، وحيث إن الرجل فرنسي النزعة فسوف نأتيه بفرنسي يحدثه عن المصدر الذي يتضمن إثبات التوحيد وتأكيده .

ومن أمثلة ذلك قول السياب حيث عد وحي السماء أساطير بالية تجر القرون بمركبة من جنون ولظى وغبار السنين، يقول:

(أساطير، مثل المُدى القاسيات

تلاوينها من دم البائسين

فكم أومضت في عيون الطغاة

بما حملت من غبار السنين

يقولون وحي السماء:

فلو يسمع الأنبياء

لما قهقهت ظلمة الهاوية

بأسطورة بالية

تجر القرون

بمركبة من لظى، في جنون

لظى كالجنون!) (ديوان السياب: ص ٣٤).

وفي مقطع آخر يعلن عقيدته في الأنبياء وفي نبوة محمد ﷺ فيقول:

(كفرت بأمة الصحراء

ووحي الأنبياء على ثراها في مغاور مكةٍ أو عند واديها)(ديوان السياب: ص ٦٤٢) .

أما نزار قباني فيقول على سبيل التهكم:

(وأنبياء الله يعرفونني

عليهم الصلاة والسلام

الصلوات الخمس لا أقطعها

يا سادتي الكرام

وخطبة الجمعة لا تفوتني

يا سادتي الكرام

من ربع قرن وأنا

أمارس الركوع والسجود

أمارس القيام والقعود) (الأعمال الشعرية لنزار قباني ١/ ١٣٢).

ثم عقب بعد ذكر هذه الأعمال والعقائد الإسلامية وغيرها:

(وهكذا يا سادتي الكرام

قضيت عشرين سنة

أعيش في حظيرة الأغنام

أعلف كالأغنام

أنام كالأغنام

أبول كالأغنام

أدور كالحبة في مسبحة الإمام

لا عقلي لي لا رأس لا أقدام

استنشق الزكام من لحيته

والسل في العظام

قضيت عشرين سنة

مكوماً كرزمة القش على السجادة الحمراء

أجلد كل جمعة بخطبة غراء) . المصدر السابق ٣/ ١٣٢ - ١٣٣ .

٤- الإيمان باليوم الآخر:

هذه العقيدة القطعية الثابتة الصحيحة التي يعتقدها أهل الإسلام، نجد أن المتطاولين على الثوابت قد كذبوها وخالفوها وأنكروها: إمَّا بالكلية كما هو حال أكثرهم، وإمَّا في بعضها، والتكذيب ببعض كالتكذيب بالكل، وإمَّا بالشك والارتياب في حصولها، والشك تكذيب ومناقضة لليقين الواجب .

ونجد في منثور أقوالهم، وأصول عقائدهم الجحد الصريح ونفي البعث، والسخرية بالنصوص الشرعية والعقائد اليقينية المتضمنة لإثبات اليوم الآخر وما وراءه .

وهم في هذا كله ينطلقون من أصولهم المادية الإلحادية، التي بنوا عليها أسس فكرتهم ومنطلق توجههم، ووجهة إبداعهم، فلم يتجاوزوا حدود أقوال الدهرية القدماء بل قالوا بقولهم في أبدية الدنيا والدهر، وكرروا مضامين عقائدهم، وبعضهم قال بتناسخ الأرواح، فهم – إذن – لم يتجاوزوا الأسس الإبليسية التي أضل بها من قبلهم، وإن توغلوا في ذلك ونوعوا العبارات، واستخدموا أساليب الأدب واللغة، ولغة الفن والصحافة والإعلام، وخادعوا بالادعاءات العلمية والمزاعم العقلية، وغير ذلك من الأساليب الحداثية المشهورة.

وإذا نظرنا إلى أقوال هؤلاء الجاحدين للبعث أو المشككين فيه فإننا نجدهم عدة أضرب:

الأول: الجاحدون الملحدون، فهؤلاء أنكروا وجود الخالق تعالى، وتبعوا أقوال الفلاسفة الدهريين الطبائعيين الماديين، ومن هؤلاء الشيوعيون والوجوديون .

الثاني: الذين يعترفون بوجود الخالق، ولكنهم يكذبون بالبعث والمعاد والنشور والآخرة .

وسلفهم في ذلك كفار الجاهلية الأولى الذين كانوا يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ}، وهم مع ذلك يقولون كما حكى الله - تعالى- عنهم: {قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ}، [النمل: ٨١ -٨٢].

والمنطق الجاهلي نفسه يردده المنحرفون المحدَثون، حيث يدّعون أنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يزعمون أن الله – تعالى- عاجز عن إحيائهم بعد إماتتهم وبعثهم بعد فناء أجسادهم .

وهذا القسم هو الذي ضرب الله لهم الأمثال، وساق لهم الحجج والبراهين لبيان قدرته على البعث والنشور، وأنه –سبحانه- لا يعجزه

شيء، وفي مضمون ذلك رد على سائر المكذبين والجاحدين والمنحرفين .

الثالث: الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التي جاء بها الشرائع وتحدث بها الوحي، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويؤولون الحق بتأويلات باطلة فاسدة خاطئة، ويزعمون أنهم مهتدون.

وهذا الصنف هو أخبث الأصناف وأشدها ضرراً؛ لأنهم يتلبسون بالدين، ويستخدمون آلته في محاولة هدمه وتخريبه، تحت مسميات التحرر الفكري، والمسايرة للعصر، والنظرة التنويرية للنصوص، والتجديد للفهم وتجاوز العقليات الجامدة والتفسيرات السلفية الثابتة، وتقريب الإسلام من روح العصر، وعقلنة الدين وعلمنة الشريعة، إلى آخر دعاوى الأدعياء الذين يصدق عليهم قول الله – تعالى-: { هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ }[المنافقون:٤].

ومن الأمثلة قول الحداثي المحترق جابر عصفور في سياق حديثه عن الموقف المضاد للحداثة في كتاب الأخ الشيخ عوض القرني، ومقدمته التي كتبها سماحة العلامة الشيخ عبدالعزيز بن باز، ويصف ذلك بأنه خطاب إرهابي قمعي تسلطي ينبني على (الثقافة التي يغلب عليها الاتّباع والتقليد، وبنية المجتمع يغلب عليه الخوف والإذعان، وذلك في متواليةٍ

تؤجج عمليات التناص الديني السياسي الاجتماعي في لا وعي المتلقي، حيث تتجاوب المخزونات اللاشعورية الملازمة لسلطة الدولة الإرهابية وأجهزتها القمعية وعنفها اللاإنساني، والمخزونات المصاحبة للقيم الدينية، حيث الخوف من عذاب القبر والرعب من نار الآخرة...) الإسلام والحداثة، ص ٢٤.

يعبر أحدهم عن سخطه على التعليم والتأليف في بلاد المسلمين الذي قام في مجمله على الإيمان بالله واليوم الآخر، فيقول:

(خدعتنا مقاعدنا المدرسية

لم تعد النار ناراً وتلك الجنان جناناً

سوى في الكتب ...) . ثم يقول:

(سأدخل مع روحي الآن حربْ

وألقى بها في مهب الذنوب

المعدة للصالحين هناك ...

سأحيا ذنوبي هنا كلها). مجلة الناقد، العدد ٨ فبراير ١٩٨٩ م/ ١٤٠٩ هـ. ص ٣٥ من مقطوعة بعنوان (قصيدتان للحداثي الفلسطيني إبراهيم نصر الله).

أمَّا نازك الملائكة فإنها تعبر عن شكها في البعث بتقريرها أنه ليس هناك إلاّ الفناء وأنه لا حياة خالدة بعد الموت، وذلك في قولها:

(قالوا: الخلود

ووجدته ظلاً تمطى في برود

فوق المدافن حيث تنكمش الحياة

ووجدته لفظاً على بعض الشفاه

غنته وهي تنوح ماضيها وتنزله اللحود

غنته وهي تموت ... يا للإزدراء!

قالوا: الخلود، ولم أجد إلاّ الفناء) (ديوان نازك الملائكة ٢/ ٨٧).

أمَّا صلاح عبد الصبور فإنه يعبر عن عقيدته في هذه القضية العظيمة بقوله:

(وقيل لكم:

بأن حياتكم جسر، وأن بقاءكم مسطور

خطى تخطى بميقات إلى دارٍ ببابين

نطوف بها كومض شعاعة العين

وأن العاقل المبرور من يحيا بلا زاد

يجمع زاد راحلته

لأن وراء هذه الدار فيما قد رواه الناس

شطوطاً طاميات موجها ديجور

ولولا سيف نور شق ظلماها

وملاح على مركب

يقول لمن أحث الخطو في دهليزها:

اركب!

ولولا ومض مصباح يلوح لمقلة الملاح

لضل الركب في التيه سنين مئين

أقول لكم: بأن الزيف قد يقتات بالفطنة، وسقْط القول قد يعلو بأجنحة من الترديد). (ديوان صلاح عبد الصبور ص ١٦٧ - ١٦٨).

أمّا نزار قباني الممتليء ببغض الشرق والعرب والمتخم بأنواع الضلالات ؛ فإنه يجعل من التخلف الإيمان بما شرع الله وبما أخبر به عن يوم القيامة، يقول:

(في ليالي الشرق لما

يبلغ البدر تمامهْ

يتعرى الشرق من كل كرامةْ

ونضال

فالملايين التي تركض من غير نعال

والتي تؤمن في أربع زوجات

وفي يوم القيامة...).

إلى أن قال في نهاية المقطع:

(شرقنا المجتر تاريخاً

وأحلاماً كسوله

وخرافات خوالي). الأعمال الشعرية لنزار قباني ١/ ٣٦٧ - ٣٦٨ .

٥- الإيمان بالقدر:

ومن أظهر تطاولهم في باب القدر ما يلي:

١ - نفي وجود القدر، ونفي قدرة الله تعالى، وجعل القدر خرافة وكذباً.

٢ - ذم القدر والاعتراض عليه، وجعل الإيمان سبباً للتخلف والتحجر والمهانة والسذاجة.

٣ - التهكم والسخرية والاستخفاف بالقدر وبالمؤمنين به.

٤ – نسبة التقدير والقدر إلى غير الله تعالى، وزعم القدرة على تغيير مجرى القدر المكتوب.

٥ – نسبة الشر إلى الله عَزّ وَجَلَّ.

٦ – تبرير الرذائل والانحرافات بالقدر.

٧ – نسبة الأعمال الإرادية إلى القدر.

و ها هو أحدهم في كتابه «بحثاً عن الحداثة» يقول: (في الخرافة يتجلى ثاني أساسيات الثقافة العربية بوصفه تفسيراً للفاعلية وتعليقاً لها على وجود آخر غير منظور، وتنتشر تمثلات الخرافة تحت شتى المسميات، فهي القدر مرة، وهي الشيطان أو الكائنات الأسطورية مرة أخرى ...) بحثاً عن الحداثة لمحمد الأسعد ص ٦٦ .

ويقول الفيتوري:

(ولأنَّ القدر السيد عبد يتأله

والنبوات مظله

والديانات تعله

هب من كل ضريح في بلادي

كل ميت مندثر

كل روح منكسر

ناقماً على البشر

كل أعداء البشر

كافراً بالسماء، والقضاء والقدر). ديوان الفيتوري ١/ ١١٣.

ويقول سميح القاسم:

(كنت طفلاً، آنذاك.

علَّموني أن مجرى الأرض في كف السماء

علَّموني أنه – سبحانه - يحيى ويفني ما يشاء

علَّموني أن أطيع الأولياء

دون أن أسأل: من كانوا؟

وماذا صنعوا للتعساء؟!

علَّموني الدجل والرقص على الحبل

وإذلال النساء

علموني السحر والإيمان بالأشباح

والرقية والتعزيم

والخوف إذا جاء المساء!

علموني ما يشاؤون، ولم يستنبئوني ما أشاء

فرس الخضر .. كفيل بي

وحسبي الفقهاء!!

يا أبي المهزوم .. يا أمي الذليلة!

إنني أقذف للشيطان، ما أورثتماني

من تعاليم القبيلة!

إنني أرفضها تلك الطقوس الهمجية

إنني اجتثها من جذرها

تلك المراسيم الغبية

إنني أبصق أحقادي وعاري

في وجوه الأولياء الصالحين

إنني أركل قاذورات ذلي وانكساري

للتكايا والدراويش

وأقزام الكراسي النابـحين!

إنني أصرخ من قعر جحيمي:

يا وحلاً لصقت في نعل تاريخي العظيم

إنني أحكم بالموت عليك).

ديوان سميح القاسم المصدر السابق ص ٢٣٨ – ٢٣٩.

وعند هذا الحد أتوقف لأني قد أطلت وأتيت بما يتجاوز عدد الصفحات المطلوبة، ولعله إن أتيحت فرصة أخرى أن يتم استكمال عناصر خطة هذا البحث، نسأل الله التوفيق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الأمانة العامة للأوقاف

مجلة البيان

الاستعمار الحديث

فهم طبيعة العداء وخلفياته

د. همام سعيد

الأعمال الخيرية
Benevolent Act Makarim

الاستعمار الحديث

فهم طبيعة العداء وخلفياته

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، وبعد:

فيخطئ من يتوهم أن العداء بين الغرب الصليبي، أو الاستعمار الحديث، وبين المسلمين إنما يرجع إلى مرحلة قريبة من الزمان، أو ناتج أحداث الحادي عشر من سبتمبر، أو سببته أطماع الغربيين في ثروات المسلمين بعد اكتشاف النفط بذلك المخزون الهائل، أو رغبة في تقاسم النفوذ بين الكبار، ليأخذ كل منهم حصته من هذه الكعكة الملقاة على قارعة الطريق الدولي.

ولما كان القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ هما المرجع في تصور المسلم للأحداث وفهمه لمجرياتها، فإنه لا بد من الأخذ من هذا المعين الذي يحدد العلاقات بين المسلمين وغيرهم في سياق واحد لا يتخلف، فقد بين لنا القرآن الكريم أن موقف الصليبيين من أمة الإسلام لن يتغير، ونقصد هنا الأنظمة والحكومات أكثر مما نقصد الشعوب والأفراد، فالله تبارك وتعالى يقول لنبيه ﷺ: {وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ

تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [البقرة: ١٢٠]، ويقول: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟} [البقرة: ٢١٧]، ويقول: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟} [المائدة: ٨٢]. ويقول: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ} [التوبة: ٣٢]. ويقول: {وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ} [البروج: ٨].

هذه الآيات تؤكد أن العلاقة من جهة اليهود والنصارى هي علاقة عداء دائم للمسلمين، ونؤكد على عبارة: من جهتهم، لأن النص القرآني يؤكد هذه الجهة بقوله: {وَلَن تَرْضَىٰ}، وبقوله: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ}، وبقوله: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً}، وبقوله: {وَمَا نَقَمُوا۟}، وبقوله: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟} وهذا يؤكد أن العلاقة من جهة المسلمين هي في الأصل علاقة دعوة ورغبة في تقديم الخير لهؤلاء، وهذا الفهم لا يحمّل المسلمين مسؤولية هذا العداء، بل يتحمله الطرف الآخر، وأكبر دليل على صدق هذا الفهم سلوك المسلمين نحو هؤلاء وسلوكهم نحو المسلمين، حيث لم يذكر التاريخ أن المسلمين سفكوا دماء هؤلاء أو ارتكبوا مجازر مع هذه الشعوب أو استعمروا بلادهم للاستحواذ على خيراتها والاستبداد في شؤونها، وحرمانهم من حقوقهم الإنسانية، بينما نجد التاريخ حافلا بمجازر الصليبيين ضد المسلمين، الذين لم يكونوا يفرقون بين الصغير والكبير، ولا بين الرجل والمرأة، وكانوا وما زالوا

يمارسون أسوأ أنواع الطغيان والاستبداد مع المسلمين، وقد شهد بهذا مؤرخو الغرب وكتابه، أمثال: غوستاف لوبون وتوماس آرنولد، والمؤرخ اليهودي روث.

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن علاقة العداء بين العالم الغربي والمسلمين في العصورالحديثة أن نحدد الأطراف المحركة لهذا العداء فكثيرا ما يقال: إن اليهودية والصهيونية هي المحرك لهذه الحملات العدائية وهذا الظلم الصارخ، وأن اليهود بما لهم من ثقل اقتصادي وسياسي هم وراء جميع المصائب التي حلت بالمسلمين، وهم الذين يسخرون الشعوب الغربية والأمريكان لمصالحهم، وينبني على هذه الفكرة أن الصراع لا يتوقف إلا بانتهاء الدور اليهودي المسيطر على الغرب ومؤسساته، ولقد أصبحت هذه الفكرة ثابتا من ثوابت الفكر العربي في هذا الزمان، وكثيرا ما تطرح فكرة تعظيم النفوذ العربي في الغرب مقابل النفوذ اليهودي حتى يكون للعرب تجمع (لوبي) يتغلب في السياسة الأمريكية بخاصة والغربية بعامّة على اللوبي اليهودي. ويلزم من هذه الفكرة أن يكون العداء مع الصليبية عداء طارئاً، أو ما يسمى عداءً لغيره وليس عداءً لذاته.

ومع أنه لا ينكر الدور اليهودي الحاقد في هذه المعركة إلا أن الدور الصليبي الغربي هو الأطول والأعنف، والحقائق التاريخية تؤكد أن الحقد الصليبي على المسلمين هو حقد ذاتي، وهو المحرك الرئيس لغيره من الأحقاد، وأن اليهود برغم عداوتهم الأشد، فإنما هم مخلب من مخالب

هذا الحقد ووسيلة من وسائله وأداة من أدواته، إذ أن عداوة الصليبيين للمسلمين بدأت منذ عهد الرسالة واستمرت على مدى التاريخ وكان لها جولات كثيرة وطويلة من الحروب وسفك الدماء، سواء في أطراف الدولة الإسلامية أو في قلبها، حيث وصل الأمر إلى احتلال فلسطين وبلاد الشام وأجزاء من مصر وتهديد المدينة ومكة لمدة قاربت مئتي عام خلال الحروب الصليبية التي سبقت الغزو المغولي والتتري لبلاد المسلمين. وكانت ممارسات الصليبيين مع المسلمين استئصالية كلما حدث في الأندلس.

وأما في القرون الحديثة فما زلنا نعيش حالة الهجمة الاستعمارية الطاغية ونرى بعيوننا شلال الدم المتصبب من أمة الإسلام، كما نرى استحواذ هؤلاء الغربيين على كثير من بلاد المسلمين، وما هذه الجيوش الغربية المترسة في بحارنا وبلادنا وأجوائنا إلا دليل صارخ على أحقاد لا حد لها ولا نهاية.

وليس احتلال اليهود لجزء عزيز من أرض المسلمين وجعل هذا الجزء خنجرا في قلب العالم الإسلامي يمنع الاتصال بين مشرقه ومغربه إلا جزءاً من تدبير خبيث دام عدة قرون من الكيد الصليبي للعالم الإسلامي، ويخطئ من يظن أن أهداف هذا الاحتلال في نظر المخططين له إنما هي إعطاء أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، أو حل المشكلة اليهودية المزمنة التي صنع الغربيون منها مشكلة منذ سنة سبعين ق.م، وحتى أوائل القرن التاسع عشر، أو أن يكون هدفهم من زرع هذا

الكيان الاستعانة به لتثبيت وجودهم على هذه الأرض، وكذلك فالهدف من هذا الاحتلال لم يكن فلسطين وشعبها على وجه الخصوص. وكذلك ما نراه من كون القضية الإسلامية هي الأكثر إلحاحاً في الذهن الغربي، لتلك الأسباب وغيرها جاء اختيار هذا العدوالأشدّ ليغتصب هذا الموقع الجغرافي الأعز في هذا الزمن التاريخي وزرع هذا الجسم الغريب، الذي يفصل جسم العالم الإسلامي شرقيه عن غربيه، ويفتح فيه خراجات دامية تستنزف قدراته، وتشغله عن المحتل الآخر، ثم لا يجد هذا العالم الأسلامي المسكين مناصاً من اللجوء إلى الغربيين الذين هم سبب دائه بالبكاء والعويل والاستعانة بهم والاعتماد عليهم، وطلب الإنصاف منهم!!!

إن تاريخ الاستعمار الحديث يحمل في طياته الكثير من الشواهد على أن زرع دولة يهودية في بلاد المسلمين هو أحد وجوه الاستعمار وجوانبه، فإذ أخذ هذا الاستعمار شكل الاحتلال المباشر في المغرب العربي وسوريا ولبنان من الفرنسيين، وفي ليبيا من الطليان، وفي مصر والأردن والعراق وفلسطين من الانجليز، وأخذ شكل السيطرة على منابع البترول والمعابر المائية والشواطئ البحرية، واستخدم أسلوب التغريب الثقافي ونشر القيم الغربية في بلاد المسلمين وإحياء الحضارات السابقة كالفرعونية والفنيقية والأشورية والبابلية، فقد كان احتلال اليهود لفلسطين أحد هذه الجوانب الاستعمارية، بل هو أخطرها

وأعظمها أثرا، حيث لم ينتج العقل الغربي الحاقد أسوأ من هذه الفكرة الاستعمارية.

لقد بدأت فكرة زرع الكيان اليهودي في فلسطين، تلوح في الأفق، بعد ظهور حركة الإصلاح الديني على يد مارتن لوثر في أوروبا، حيث بدأ أصحاب المذهب البروتستانتي الجديد بترويج فكرة تقضي بأن اليهود ليسوا جزءاً من النسيج الحضاري الغربي، لهم ما لهم من الحقوق وعليهم ما عليهم من الواجبات، وإنما هم شعب الله المختار، وطنهم المقدس فلسطين، يجب أن يعودوا إليه .وكانت أولى الدعوات لتحقيق هذه الفكرة ما قام به التاجر الدنماركي أوليغربولي Oliger poulli عام ١٦٩٥، الذي أعد خطة لتوطين اليهود في فلسطين، وقام بتسليمها إلى ملوك أوروبا في ذلك الوقت. (انظر: خالد عابد، التوسعية الصهيونية «إسرائيل الكبرى»ص٥٤٣). وفي عام ١٧٩٩ كان الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت أول زعيم دولة يقترح إنشاء دولة يهودية في فلسطين أثناء حملته الشهيرة على مصر وسوريا .حيث وجه نابليون خطابا إلى اليهود أثناء حصاره لمدينة عكا سنة ١٧٩٩ قائلاً:

«من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين.

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومي، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط. إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين ـ وإن لم تكن

لهم مقدرة الأنبياء مثل أشعياء ويوئيل ـ قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله (كلمة إسرائيل في اللغة العبرية تعني أسر الله أو عبد الله) سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون، وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف. انهضوا بقوة أيها المشردون في التيه. إن أمامكم حربا مهولة يخوضها شعبكم، بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التي ورثها عن الأجداد غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم... لابد من نسيان ذلك العار، الذي أوقعكم تحت نير العبودية، وذلك الخزى الذي شل إرادتكم لألفي سنة. إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلي عن حقكم . ولهذا فإن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل، وهي تفعل ذلك في هذا الوقت بالذات، وبالرغم من شواهد اليأس والعجز. إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به، ويمشي بالنصر أمامه وبالعدل وراءه، قد اختار القدس مقرا لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي لم تعد تُرهب مدينة داود.

يا ورثة فلسطين الشرعيين.

إن الأمة الفرنسية التي لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها. تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء. انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوي شرفًا لأسبارطة وروما، وأن معاملة العبيد التي طالت ألفي سنة لم تفلح في قتل هذه الشجاعة. سارعوا! إن هذه

هي اللحظة المناسبة - التي قد لا تتكرر لآلاف السنين - للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سلبت منكم لآلاف السنين وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم» (انظر محمد حسنين هيكل: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، القاهرة، ١٩٩٦م،ج١ ص٣١-٣٢).

ثم استلمت هذه المهمة الدولة البريطانية ابتداء من محاولة إقناع السلطان العثماني بالسماح بهجرة اليهود إلى فلسطين في منتصف القرن التاسع عشر إلى أن أصدر بلفور وعده المشؤوم بإقامة وطن قومي لليهود على أرض فلسطين، وما تبع ذلك من تواطؤ الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا لتنفيذ هذا الوعد على أرض الواقع، حيث بدأت الإجراءات الفعلية من خلال ما يسمى بالانتداب البريطاني على فلسطين والأردن، والانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان، ثم فتح باب الهجرة على مصراعيه، وتأييده بالدعم الدولي والاعتراف الأممي، وفي الوقت الذي لم يكن بيد اليهود ما لا يزيد عن ٦٪ من أرض فلسطين كان قرار هيئة الأمم عام ١٩٤٧م بتقسيم فلسطين لتكون حصة اليهود منها ٥٤٪. يضاف إلى ذلك حرمان الشعب الفلسطيني من حقوقه السياسية، وتحويله إلى مجموعة من الطوائف التي لا يعترف لها بشيء سوى بعض الحقوق الدينية والمدنية، لتصبح البقية الباقية من أهل فلسطين سكانا لا مواطنين على أرضهم.

ثم استلمت زعامة هذا الإفك والطغيان الولايات المتحدة الأمريكية التي حرصت على دعم هذا الكيان بالمال والسلاح والرجال والقرارات الدولية وحق النقض (الفيتو)، حيث لم يستعمل هذا الحق كما استعمل لصالح اليهود.

إن هذا التنوع في خدمة المشروع اليهودي على أرض فلسطين سواء بالدول الداعمة أو بالمشاريع المقدمة على امتداد هذه السنوات الطويلة يؤكد أمرا واحدا وهو أن المشروع اليهودي لا يعدو أن يكون أداة من أدوات الاستعمار الصليبي لبلاد المسلمين.

إن معركة هذه الأمة اليوم مع اليهودية والصليبية إنما هي حلقة من حلقات المعركة الطويلة مع الروم، فليس الروم أمة بادت وغادرت التاريخ، ولم يبق لها ذكر بين الإمبراطوريات والدول، ولا يعني تغير أسماء الدول والمجتمعات الغربية من الدولة الرومانية إلى بريطانيا أو فرنسا أو إسبانيا، ولا تسميتها بالاتحاد الأوروبي أو الولايات المتحدة أنها خرجت عن حقيقة الدولة الرومانية ووظيفتها.

لقد بين لنا نبينا صلى الله عليه وسلم نوعية الصراع الطويل مع الروم، فقد أخرج مسلم (حديث ٢٩٠٠) عن نافع بن عتبة، عن النبي ﷺ، قال: «**تغزون جزيرة العرب، فيفتحها الله، ثم فارس، فيفتحها الله، ثم تغزون الروم، فيفتحها الله، ثم تغزون الدّجال، فيفتحه الله. قال: فقال نافع: يا جابر! لا نرى الدّجال يخرج حتى تُفتح الروم**».

إن هذا الحديث يكشف عن مجمل الصراع بين الأمة الإسلامية وأعدائها، ابتداء من المشركين في جزيرة العرب إلى أن يقتل الدجال، ويكشف الحديث عن طول فترات الصراع مع كل عدو من هؤلاء الأعداء، ويبين الحديث كما هو الواقع أن ثلاثة من هؤلاء الأعداء ينتهون بجولة أو جولتين، وأن الروم من بين هؤلاء الأعداء وجدهم تميزوا بطول زمان حربهم مع المسلمين، وكثرة المعارك معهم، والواقع التاريخي يشهد على هذا، إذ لم يعرف التاريخ البشري صراعاً مضى عليه الف وأربعمائة عام، وما زال هذا الصراع جذعاً، تزداد ناره اشتعالاً، سوى هذه الحرب. ولهذا الحديث شواهد أخرى منها ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم ١٩٣٤٢ والحارث في مسنده برقم ٧٠٢ عن ابن محيريز، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فارس نطحة أو نطحتان، ثم لا فارس بعدها أبدا، والروم ذات القرون، كلما هلك قرن خلف مكانه قرن، أهل صخر وأهل بحر، هيهات لآخر الدهر، هم أصحابكم ما كان في العيش خير**».

إن هذا العدو القديم الجديد الذي يقف في وجه الأمة اليوم، ويحتل أعز بقاعها، ويأخذ بخناقها من كل جانب، ويرتكب بحقها أبشع المجازر والجرائم، وينتهك حرمة ربها ونبيها وقرآنها ومقدساتها هو العدو نفسه الذي خاض المعارك المتواصلة ابتداء من غزوة مؤتة مرورا بمعركة اليرموك ومعارك الشام الأخرى والمعارك مع الدولة البيزنطية، ثم الحروب الصليبية، ثم فتح القسطنطينية، ثم الحروب داخل أوروبا، ثم

الغزو الاستعماري الحديث لبلاد المسلمين، بما في ذلك احتلال فلسطين والعراق وأفغانستان، ولم تتوقف هذه الحروب الاستعمارية عند حدود الاحتلال العسكري والسيطرة على الثروات وإنما شملت جميع شؤون الحياة في البلاد الإسلامية، بما في ذلك أنظمة الحكم ومناهج التعليم ونظام الأسرة وحقوق المرأة، وتعميم طرائق الحياة الغربية، ونشر الفلسفة المادية القائمة على المتع والشهوات، والبعد عن الحياة الإسلامية بما فيها من نظام للعقيدة والعبادة والمجتمع، وأصبح الإسلام مطاردا في بلاده من خلال شبهة الحرب على الإرهاب.

ويستفاد من هذه الأحاديث وغيرها أن أمة الإسلام تبقى في مواجهة الروم الذين يواصلون معاركهم معها حتى تأتي الملحمة الكبرى التي تكون فاصلة بين المسلمين وبين الروم، والجدير بالذكر أن هذه الملحمة معلومة عند المسلمين واليهود والنصارى وإن كان كل فريق يقرأ هذه الملحمة بمقتضى عقيدته، والمسلم يعتقد أن الحق ما جاء به رسول الله ﷺ، وقد جاء ذكر هذه الملحمة في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم رقم: (٢٨٩٩): عن يسير بن جابر، قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة فجاء رجل ليس له هجيرى (أي: صوت عال) إلا ياعبد الله بن مسعود جاءت الساعة، قال فقعد، وكان متكئًا، فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث ولا يفرح بغنيمة، ثم قال بيده: هكذا (ونحاها نحو الشام) فقال: عدو يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام، قلت: الروم تعني؟ قال نعم! وتكون عند ذاكم القتال ردة

شديدة، فيشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون، حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون، حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان يوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدبرة عليهم، فيقتلون مقتلة - إما قال: لا يرى مثلها وإما قال: لم ير مثلها - حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخر ميتا، فيتعادّ بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح؟ أو أي ميراث يقاسم؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك فجاءهم الصريخ: إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم، ويقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ**».

وأخرج مسلم (حديث ٢٨٩٧) عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ، قال: «**لا تقوم الساعة حتى يَنزل الروم بالأعماق، أو بدابق. فيَخرج إليهم جيشٌ من المدينة، من خِيار أهل الأرض يومئذٍ، فإذا تصافّوا قالت الروم: خلّوا بيننا وبين الذين سَبَوا منّا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا،**

والله! لا نخلّي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم، فيَنهزم ثلثٌ لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقتَل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله، ويَفتتح الثلث. لا يُفتَنون أبداً. فيَفتتحون قسطنطينيّة، فبينما هم يَقتسمون الغنائم، قد عَلّقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إنّ المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيَخرجون، وذلك باطلٌ. فإذا جاؤا الشّأم خرج. فبينما هم يُعِدّون للقتال، يُسَوّون الصّفوف، إذ أُقيمت الصلاة، فينزل عيسى بن مريم ﷺ فأمَّهم فإذا رآه عدوّ الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء. فلو تركه لانْذاب حتى يهلِك. ولكن يقتله الله بيده، فيُريهم دمه في حربته».

وأخرج أبو داود (حديث٤٢٩٢) عن ذي مِخْبَر رجُل من أصحاب النبيّ ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «ستُصالحون الرومَ صُلحاً آمِناً، فتغزون أنتم وهم عدوّاً من ورائكم، فتُنصرون وتغنمون وتسلمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذي تلولٍ، فيرفع رجُلٌ من أهل النصرانية الصليب، فيقول: غلب الصليبُ، فيغضب رجُل من المسلمين فيدقّه، فعند ذلك تَغدر الرومُ، وتجمع للملحمة».

إن الفكر الصليبي الاستعماري يدور منذ ما يزيد على أربعة قرون على أن شرط مجيء المسيح مرة أخرى وفق التصور النصراني لا يمكن أن يتحقق إلا إذا قامت دولة يهودية على أرض فلسطين، وتم بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، وعندئذ تكون معركة (هرمجدون) التي يقتل فيها ملايين البشر، ولا يبقى من اليهود إلا فئة قليلة، حيث يعتنقون النصرانية. وليس هذا الفكر فكر جماعة قليلة لا شأن لها في

صناعة الأحداث، بل هو فكر الإنجيليين الجدد الذين يزيد عددهم في الولايات المتحدة وحدها على ٤٠ مليونا ولهم إعلام مسيطر على الرأي العام الأمريكي، حيث تعمل في خدمتهم ألوف المحطات التلفزيونية والإذاعية، التي تبشر ليل نهار بقرب معركة هرمجدون.

(... يعتقدون أن كارثة نووية فقط يمكن أن تعيد المسيح إلى الأرض، إن هذه الرسالة تبث عبر ١٤٠٠ محطة دينية في أمريكا، ومن بين ٨٠٠٠٠ قسيس إنجيلي يذيعون يوميا من خلال ٤٠٠ محطة راديو، فإن الأكثرية الساحقة منهم من التدبيريين" أي الذين يعتقدون هذه العقيدة وينتظرون حدوثها ويجدون في دعم دولة اليهود بكل ما تحتاج إليه من أسباب القوة هو الطريق الموصل إلى هذه النبوءة). (انظر: النبوءة والسياسة، ص٣١).

يقول د. سفر الحوالي في محاضرة له بعنوان: القدس بين الوعد الحق والوعد المفترى: (اسمعوا ماذا يقول دعاة الأصولية الإنجيلية. يقول بات روبرتسون: (كنت أتمنى أن أستطيع القول إننا سنحصل على السلام ولكني أؤمن بأن معركة هرمجدون -مقبلة - إن هرمجدون قادمة وسيصب غمارها في وادي فريدون، إنها قائمة، إنهم يستطيعون أن يوقعوا على اتفاقيات السلام التي يريدون، إن ذلك لن يحقق شيئًا، هناك أيام سوداء قاتمة) ويضيف: (إنني لا أخطط لولوج جهنم قادمة إن الله سوف يهبط من عليائه يا إلهي إنني سعيد من أجل ذلك إنه قادم ثانية)، نقلاً عن النبوءة والسياسة: ٣٧.

وتقول مؤلفة كتاب (النبوءة والسياسة): (إن الأربعين مليون إنجيلي أصولي يؤمنون بقوة أن الله نفسه يريد أن تحصل (إسرائيل) على أي جزء من الأراضي العربية وعلى كل الأراضي العربية التي تتمكن من مصادرتها) وكما يقولون: (إننا نحن المسيحيين نؤخر وصول المسيح من خلال عدم مساعدة اليهود على مصادرة مزيد من الأراضي). ولهذا يفتتح اليهود مزيدًا من المستوطنات الجديدة في الضفة والجولان حتى إبان انعقاد المؤتمر، ومن ورائهم الأصوليون الإنجيليون في أمريكا الذين يقولون: (إن أي أحد يعترض على شيء من ذلك - أي على استحداث المستوطنات - إنما يؤخر عودة المسيح أو يساهم في هذا التأخير). من محاضرة الكترونية.

ويقول د. خالد بن محمد الغيث في مقال له بموقع (altareekh.com):

إن قيام الدولة اليهودية في نظر الأمم البروتستانتية، يعد تحقيقاً لأهم وأخطر نبوءة في كتبهم المحرفة ألا وهي نبوءة (الألفية السعيدة) ومختصر تلك النبوءة يدور حول عودة المسيح عليه السلام إلى الأرض ليحكم العالم مدة (ألف سنة) تعم فيها السعادة وينتشر فيها الخير، لكن تلك العودة مشروطة بقيام الدولة اليهودية في فلسطين، وعاصمتها القدس، وبناء الهيكل مكان المسجد الأقصى، وبقيام معركة (مجدّو) أو (هرمجدّو) والتي سيتم فيها القضاء على كل الأشرار الذين سوف يحاولون عرقلة العد التنازلي للألفية السعيدة، لذا فإن من يحاول عرقلة العد التنازلي لهذه النبوءة، سيدخل تلقائياً في نادي الأشرار، وهذا يعني أن الأمة

المسلمة، في نظر عشاق تلك النبوءة، تعد عضواً مؤسساً في ذلك النادي. وعن تلك النبوءة تقول الكاتبة الأمريكية (جريس هالسل) في كتابها:(النبوءة والسياسة): (إننا نؤمن كمسيحيين أن تاريخ الإنسانية سوف ينتهي بمعركة تدعى (هرمجدون)، وأن هذه المعركة سوف تتوج بعودة المسيح، الذي سيحكم بعودته على الجميع، وأن اليهود هم شعب الله المختار، وأن الله أعطى الأرض المقدسة إلى شعبه المختار اليهود، ولأن اليهود هم شعبه المختار، فإن الله يبارك الذين يباركون اليهود، ويلعن لاعنيهم. نقلاً عن (النبوؤة والسياسة ص١٣) ويقول القس الأمريكي (جورج أوتيس): (نحن نؤمن بأرض إسرائيل، كما نؤمن بأن كل الأرض المقدسة، هي ميراث الشعب اليهودي، غير القابل للنقل أو التصرف، وهو الوعد الذي أعطي إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولم يلغ قط، كما أن إنشاء إسرائيل الحديثة هو إيفاء لا ينازع للنبوءة التوراتية، ورؤى النذير بمقدم المسيح، إننا نعتقد أن اليهود في أي مكان، ما زالوا هم شعب الله المختار). وعن قيام الدولة اليهودية يقول الرئيس الأمريكي السابق (جيمي كارتر): (إن إنشاء دولة إسرائيل، هي إنجاز النبوءة التوراتية وجوهره، وقال أيضاً مخاطباً اليهود حين زار فلسطين في عام١٩٧٩م: (إننا نتقاسم معكم تراث التوراة) أما الرئيس الأمريكي السابق (ريغان) فقد كان مشغوفاً بتسريع خطوات العد التنازلي للألفية السعيدة، حيث قال: (إن إسرائيل هي الديمقراطية الثابتة الوحيدة التي

يمكن أن نعتمد عليها كموقع لحدوث (هرمجدو)، وقال أيضاً: إن جميع النبوءات التي يجب أن تتحقق قبل هرمجدو قد مرت.

إن هذه النصوص تظهر أن حمل اليهود إلى أرض فلسطين ليس حبا فيهم، ولا شفقة عليهم، بل لكونهم شرط حصول هذه التنبؤات، وبهذا نرجع إلى ما كنا قررناه ابتداء أن إقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين إنما هو وسيلة صليبية غربية لإعنات المسلمين وتبديد طاقاتهم وتمزيق بلادهم وإشغالهم عن رسالتهم العظمى التي هي حمل الإسلام ونشره بين الناس.

أما العلاقة المستقبلية بين المسلمين والعالم الصليبي فهي مرشحة لمزيد من التوتر والحروب، وقد بينت السنة النبوية الكثير من جوانبها، وفي هذه العلاقة محطات كبرى أخبرت السنة عنها، منها حصار يفرضه الروم على الشام وعلى مصر وعلى العراق، فقد أخرج مسلم (حديث ٢٩١٣) عن أبي نضرة، قال: كنّا عند جابر بن عبد الله، فقال: يوشِك أهل العراق أن لا يُجبَى إليهم قَفيزٌ ولا درهمٌ، قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قِبَل العجم. يَمنعون ذاك. ثم قال: يوشِك أهل الشّأم أن لا يُجبَى إليهم دينارٌ ولا مُدْيٌ. قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قِبَل الروم. ثم أَسكتَ هُنَيّةً، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكون في آخر أمّتي خليفةٌ يَحثِي المال حَثْياً، لا يَعُدّه عدداً**».

كما تحدثت عن انحسار الفرات عن جبل من ذهب، وما يكون عنده من القتال، كما تحدثت السنة عن صلح يكون بين المسلمين والروم، ثم

عن غدر الروم بالمسلمين ثم مجيئهم تحت ثمانين راية، تحت كل راية منها مائة وعشرون ألفاً، وبذلك يكون الحشد العسكري ما يقارب مليونا من الجنود الصليبيين، وتكون الملحمة الكبرى التي جاء ذكرها بالحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم وغيره.

إن نهاية الصراع مع الروم يكون مع نزول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، والأخبار في نزوله متواترة عن رسول الله ﷺ، وعندئذ يقتل الدجال، فقد جاء في البخاري ٢٢٢٢ عن أبي هريرة: «**ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسرالصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية**».

وبالرغم من هذا العداء المستحكم بين المسلمين والصليبين إلا أن الواقع التاريخي يثبت فشو الإسلام فيهم، فقد تحولت بلاد كثيرة من النصرانية إلى الإسلام، أو أسلم أكثر أهلها، وكان لهؤلاء المسلمين الجدد دور عظيم في حمل الإسلام ونشره. ومن هذا ما نشاهده اليوم من إقبال الغربيين على الإسلام، وسيكون الإقبال أعظم، أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: **سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟** قالوا نعم يا رسول الله! قال: **لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحد جانبيها**. قال ثور: لا أعلمه إلا قال: **الذي في البحر، ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة: لا إله**

إلا الله والله أكبر، فيفرج لهم، فيدخلوها، فيغنموا، فبينما هم يقتسمون المغانم إذ جاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون». (حديث رقم٢٩٢٠).

إن هؤلاء السبعين ألفاً المذكورين في الحديث ما هم إلا ممن سيسلم من جيوش الروم الذين سيغزون بلاد المسلمين، ثم يشاء الله تعالى لهم الهداية، ونأخذ هذا الفهم من حديث آخر أخرجه الإمام مسلم برقم (٢٨٩٧) عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصادفوا قالت الروم خلّوا بيننا وبين الذين سُبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله، لا نخلِي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا، ويقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث، لا يفتنون أبدا، فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فأمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته**».

إن المعركة المذكورة في هذا الحديث هي الملحمة الكبرى، وهي من جهة الصليبيين

معركة هرمجون، ويكون سبب هذه المعركة من يسلم من الروم ويخوضون معركة القسطنطينية، فيقول الروم للمسلمين: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. وفي هذا التوفيق بين الحديثين نخرج من الخلاف بين شراح الحديث الذين قالوا بشذوذ رواية مسلم، وأن فيها خطأ من بعض الرواة، وقولهم: إن الصواب: بني إسماعيل.

الأمانة العامة للأوقاف
مجلة البيان
الإعمال الخيرية

التوصيات

تأكيد الدعوة إلى الأسلام في الغرب بمختلف الوسائل، ومن ذلك:

١- تكوين لجنة من كبار العلماء والدعاة من مختلف بلاد المسلمين تشرف على أعمال التبشير بالإسلام في الغرب.

٢- عقد مؤتمر متخصص لدراسة أولويات الدعوة الإسلامية في الغرب والسبل الناجعة في نشر الدعوة.

٣- تخصيص قنوات فضائية لدعوة الغربيين إلى الأسلام، أو على الأقل تخصيص ساعات بث للدعوة.

٤- إعداد الدعاة القادرين على مخاطبة الغرب وفق خطة يتوافر لها الدعم المالي والفني.

٥- تأليف كتب إسلامية تيسر فهم الإسلام بلغات الغربيين.

٦- استقطاب عدد من الشباب المسلم الغربي لإعدادهم الإعداد الجيد، وإعادتهم إلى بلادهم.

٧- توطين بعض الدعاة في بلاد الغرب ولاسيما أساتذة الجامعات.

٨- العناية الخاصة بترجمة القرآن الكريم وكتب السنة على أيدي لجان علمية شرعية.

٩- تقديم الحلول الإسلامية لمشكلات الغرب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلى الله وحده لا شريك له وأن محمد عبده ورسوله، عَلَمُ الهداية وتمام الرسالة وختم النبوة، نبينا وحبيبنا محمد ﷺ الذي جعل القرآن الإيمان به وتوقيره وتعزيره ومحبته والذود عنه وعن رسالته من أعظم القربات، أما بعد :

فسعياً من القائمين على مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام إلى بلورة فكرة المؤتمر واتضاح الرؤية حول أهدافه ومراميه، سعياً منهم إلى تحقيق ذلك توجهوا إلى أصحاب الفضيلة العلماء المشاركين لتزويدهم ببحوث تخدم مادة المؤتمر وتجسد منهج المؤتمرين، وتنزع الغشاوة التي قد تكون غطت بعض الحقائق في ظل الهالة الإعلامية والتزويق المؤدلج.

وقد استجاب جماعة من المشايخ حفظهم الله، فأعدوا بحوثاً رائدة تناولت مختلف حيثيات موضوع المؤتمر.

ونظراً لما تتسم به هذه البحوث من أهمية، وما احتوت عليه من نتاج علمي فذ، وطلباً لنشر الفائدة وتعميمها، فإن القائمين على المؤتمر قد رأوا طباعتها في كتاب واحد يَسْهُل على المهتمين اقتناؤه.

وقد تم ترتيب هذه البحوث حسب تقديمها خلال أنشطة المؤتمر.

علماً أن هذه الأبحاث هي التي وصلت إلينا حتى تاريخ ١٤٢٧/١٢/٢٦هـ، وقد نُسقت حسب ما وردت إلينا من الباحثين دون أي تعديل وهي تمثل وجهات نظرهم، وسوف تخرج كاملة بعد المؤتمر بإذن الله تعالى.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

اللجنة العلمية

عناصر الشرك

الاستكبار والفحش في القيم الغربية

أ. د. جعفر شيخ إدريس

أصبح من البدهيات أن القادة السياسيين في الغرب يعتقدون أن الإسلام ـ الذي يصفونه بالرادكالي ـ هو الآن العدو الأول والخطر الأكبر على الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية. لقد كان الاتحاد السوفيتي مضاهيا للغرب في تقدمه العلمي والتقني وما ترتب على ذلك من قوة مادية، وكان في مبادئه وأيدلجياته ومؤسسيه امتدادا للفكر الغربي نفسه. أما المسلمون فماالخطر الذي يمثلونه على الحضارة الغربية وهم اليوم أكثر ما يكونون تخلفاً في تلك العلوم والتقنيات بالنسبة للغرب، إذ أنهم لا يكادون يملكون من القوة المادية شيئا بينما تملك دولة كالولايات المتحدة من أسلحة الدمار الشامل ما يمكنها ـ حسب زعمهما ـ من تحطيم الكرة الأرضية كلها عدة مرات؟

فما الخطر الذي يمثله الإسلام إذن؟ أهو الإرهاب؟ لكن الجماعات الإسلامية التي تسمى بالإرهابية مهما ألحقت بالبلاد الغربية من أضرار فإنها أضرار محدودة لأنها لا تملك هي الأخرى من القوة ما يمكنها من هزيمة الدول الغربية أو حتى إضعافها؟

إن تصرفات الساسة الغربيين، ولا سيما الأمريكان منهم والبريطانيين، تدل على أنهم لا يحصرون الخطر الإسلامي على حضارتهم في ما يسمونه بالإرهاب، بل يجعلونه في الدين الإسلامي نفسه. ولهذا صاروا يصفون حربهم على الإسلام بأنها حرب قيم وأنها معركة لكسب القلوب والعقول. إنها معركة لأن الإسلام رغم ضعف أهله المادي هو كما يقولون أكثر الأديان انتشارا في بلادهم. لكننا مرة

أخرى نتساءل: ما الخطر في هذا على الحضارة الغربية؟ إذا كانت هذه الحضارة قد قبلت النصرانية واليهودية وهما دينان شرقيان، وإذا كانت قد استفادت في تاريخها من نتاج الفكر الإسلامي في مجالات الدين والفلسفة والعلوم، وإذا كانت قد قبلت العلمانية بل والإلحاد وغير ذلك من أنواع الأيدلجيات، فما الذي يمنعها من أن تقبل الإسلام إذا كان هذا هو ما اختاره بعض أهلها لأنفسهم طوعا لا كرها؟

إنه لا إجابة عن هذا السؤال الصعب إلا القول بأن الأمم الغربية رغم تعددها وتفاوتها ورغم تعدد مكونات حضارتها وتنافرها إلا أن فيها فكرا يمثل غالبيتها ويشيع بينها، ويؤثر في تصرفاتها، وأنه هو الذي يحدد موقفها من غيرها من المعتقدات والقيم ولا سيما الإسلامي منها.

لكن هذا ليس بالشيء الغريب ولا الخاص بالحضارة الغربية وأممها، بل هو سنة اجتماعية عامة قررها كتاب ربنا الذي نقرأ فيه:

{وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ} [الأنعام:١٠٨].

فكل أمة صغيرة كانت أم كبيرة لها أعمال تراها حسنة سواء كانت هذه الأعمال في نفسها صالحة أو كانت فاسدة. لا حظ أن الآية الكريمة تحدثت عن تزيين العمل لا عن الاعتقاد مع أن العمل تابع للاعتقاد.

ربما لأن المقصود هو الاعتقاد الذي يؤثر في العمل ويوجهه لا الذي يدعيه الناس بألسنتهم.

في القرآن الكريم تفاصيل أخرى عن هذه السنة الاجتماعية:

منها أن ذلك العمل المزين هو الذي يجمع الأفراد وينشئ بينهم ودا يجعل منهم أمة معينة:

{وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ } [العنكبوت: ٢٥].

قال ابن كثير:

إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا. وهذا على قراءة من نصب: {مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ} على أنه مفعول له. وأما على قراءة الرفع فمعناه: إنما اتخاذكم هذا يحصل لكم المودة في الدنيا فقط، ثم يوم القيامة ينعكس الأمر فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضة وشنآنا.

ومنها أن الأمة إنما تتخذ مواقفها من غيرها بحسب قربه أو بعده من هذا العمل المزين الذي يجمع بينها، فهي لا تتحمل ولا تتسامح مع من يخالفها فيه مخالفة كاملة ويعترض عليها، وإن كان من أبناء وطنها.

{وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [البقرة: ١٢٠].

{قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ} [الأعراف: ٨٨].

{وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [الأعراف: ٨٢].

{ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠].

ومنها أنه قد تشذ جماعة من الأمة فترى ما لا ترى غالبيتها:

{ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ} [الأعراف: ٨٧].

{ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} [غافر: ٢٨].

ومنها أن العاقبة تكون لمن كان على الحق إما بغلبتهم على أعدائهم، وإما بانتقام الله تعالى من أولئك الأعداء، كما نرى ذلك في قصص كل الأنبياء مع أقوامهم المعادين لهم.

ما العمل الذي زين للغربيين؟

نعود بعد تقريرنا لهذه السنن الاجتماعية التي فصلها لنا كتاب ربنا إلى سؤالنا الذي بدأنا به: ما العمل الذي زينه الله تعالى للأمم الغربية والذي هو سبب عدائها للإسلام وأهله؟ إنك لا تجد جوابا واضحا لهذا السؤال في ما يسمى بالنظريات أو الفلسفات أو الأيدلجيات السياسية الغربية. فالغرب ليس من حيث هذه النظريات أو الفلسفات أو الأيدلجيات أمة واحدة وإنما هو أمم مختلفة ودول حدثت بينها حروب وتفرقت أحزاباً وجماعات.

لعل الإجابة هي في ما يسمى بالقيم الغربية التي صار الغربيون الآن يكثرون من ذكرها ولا سيما حين يريدون بيان موقفهم من الإسلام وأهله سواء في بلادهم أو في غيرها. فما القيم الغربية هذه التي تجعل من الغرب كله أمة واحدة في مقابل الأمم الأخرى ومنها الأمة الإسلامية؟ إن الذي يكادون يجمعون عليه هو ما يعدونه من مصادر ثقافتهم العامة أو مكوناتها. وهو الفكر اليوناني والحضارة الرومانية والديانتان اليهودية والنصرانية والفلسفة اللبرالية والدمقراطية وحركات الإصلاح والنهضة والتنوير. لم أذكر الإسلام لأنه ليس من المصادر المعترف بها عند عامتهم، وإن كان مما يعترف به قلة من علمائهم. فهذا

أحد مؤرخيهم الكبار المعاصرين يقول "إن أوربا كانت في القرون الوسطى مدينة بالشيء الكثير للإسلام وأنها لم تكن مدينة لأية مدنية أخرى مثلما ما كانت مدينة للإسلام[١]».

إذا تأملنا في هذه الثقافة المعترف بها تاريخيا وجدنا فيها أو في فهمهم وتصورهم لها عناصر مشتركة لعلها هي التي تمثل قيمهم أو عملهم الذي زين لهم. إنها عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القول والسلوك. وإليك أمثلة على ذلك:

الفكر اليوناني: يعتقد عامة الغربيين أن الفكر اليوناني هو أساس فكرهم، حتى قال أحد فلاسفتهم إن الفلسفة الغربية كلها إنما هي حواش على كتابات أفلاطون. هذا الفكر اليوناني هو أول ما لا يزالون يرجعون إليه في تأريخهم لقضية من القضايا العلمية أو الأدبية أو الفنية. لكنهم يعتقدون فوق ذلك أن الفكر اليوناني هذا هو الذي وضع أسس الفكر العقلاني المعتمد على المنطق (أليس ارستطاليس هو واضع علم المنطق؟)، وأن الأمم الأخرى ـ ومنها العرب ـ لا تعرف هذا التفكير العقلاني المنطقي. حتى قال أحد كبار المستشرقين عن العرب إنهم لا ينكرون التناقض، بل يعدونه مما يزيد العبارة غنى. هذا مع أن العرب عندما اطلعوا على علم المنطق لم يروا فيه شيئا جديدا حتى قال قائلهم إنني كنت أعلم دائما أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد[٢]. ذلك لأن الأسس التي يقوم عليها هذا العلم هي من المعايير العقلية التي فطر الله عليها البشر أيا كانوا وخاطبهم بها في رسالاته.

والعرب كغيرهم من البشر يعلمون بطلان الكلام المتناقض ولذلك فإنهم يحتملون في لغتهم كل شيء إلا التناقض. قال سيبويه عن العرب:

ويحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه لأنه مستقيم ليس فيه نقض[٣].

والحضارة اليونانية كانت رغم انجازاتها الفكرية الكبيرة كانت حضارة شرك وفحش. لم يكن شركها كما كان شرك العرب محصورا في الألوهية، بل كان شركا في الربوبية أيضا فلم يكونوا يعتقدون أن آلهتهم مجرد وسائل تقرب صاحبها إلى الله تعالى، بل كانت تحل محله سبحانه. فهذا رب للحب وذاك رب للجمال وثالث رب للحرب وهكذا.

وكانت حضارة فحش لا ترى بأسا بالعري كما تدل على ذلك تماثيلهم المنحوتة وصورهم المرسومة و قصصهم وأشعارهم التي يشيع فيها قصص البغاء والشذوذ الجنسي الذي كان معروفا حتى بين كبار مفكريهم وفلاسفتهم. وقد اهتم مؤرخو هذا الفكر حديثا بهذه القضية وكتبوا فيها كتبا يقال إن أهمها كتاب نشر في عام ١٩٨٧[٤] ثم تبعه سيل من الكتب التي تتحدث عن هذا الموضوع.

الديانة اليهودية: إن الله تعالى يفضل الناس ويكرمهم بأعمالهم الصالحة الاختيارية، وقد فضل الله بني إسرائيل على غيرهم عندما كانوا آخذين برسالة موسى. لكن تحريف الدين والفهم السيء له حول هذا التفضيل إلى مسألة عرقية فصاروا يعتقدون أنهم باعتبارهم عنصراً هم

شعب الله المختار، ثم انتقلت هذه الفكرة إلي الديانة البروتستانية، ثم صارت عن طريقها كما يذكر لنا صاحب كتاب الثيوغراطية الأمريكية جزءا من التفكير القومي للشعب الأمريكي، ومن قبله للشعب البريطاني وللأفركان الذين حكموا جنوب أفريقيا. فاعتقاد الشعب الأمريكي بأهميته القومية الذاتية ليس سراً لا في داخل أمريكا ولا في خارجها كما يقول.

لقد ظل الأمريكان منذ قرون يعتقدون أنهم شيء خاص، شعب وأمة اختارها الله لتقوم بمهمة فريدة بل خيرة في العالم. والرؤساء المنتخبون يجنحون إلى الدعوة إلى هذه الخصوصية ويؤكدونها(٥).

وما يسمونه بالكتاب المقدس مليء بقصص من الفحش، منسوبة إلى أنبياء الله ـ أكرم خلق الله. وقد استغل بعض الملحدين هذه الحقيقة فنشروا كتبا أحصوا فيها كل النصوص التي فيها ما اعتبروه نوعا من الفحش ثم طالبوا بأن يكون هذا الكتاب من الكتب التي تسمى بالفاحشة والتي يمنع وضعها بين يدي الأطفال!!

الديانة النصرانية: أما الديانة النصرانية فأخذت عنصر الاستكبار من العهد القديم الذي تعده جزءا من دينها كما رأينا في ما نقلنا قبل قليل. ثم زادت عليه أنه لا نجاة لأحد من الأولين والآخرين لم يتشرف بالإيمان بربوبية عيسى عليه السلام واعتبار موته تكفيرا عنه، وأن هذا تكفير حاصل لا محالة لكل من اعتقد ذلك الاعتقاد مهما كانت سيئاته وجرائمه، هذا مما يزين الفحش لمن كان شخصاً عادياً ضعيفاً، لكن

النصرانية زادت هذا الإغراء به في طلبها من قساوستها أمرا مخالفا للفطرة كانت نتيجته الوقوع في الفواحش سرا والتستر عليها. وقد استغل هذا خصومهم من الملحدين والمنكرين للدين أسوأ استغلال، حتى عده الفيلسوف البريطاني الشهير من أسباب كونه ليس مسيحياً.

هاتان الديانتان اللتان كانتا في الأصل ديانتي توحيد مبنيتين على وحي الله تعالى إلى موسى ثم إلى عيسى عليهما السلام صارتا بعد التحريف ديانتي شرك. فاليهود أشركوا بتحريفهم لكلام الله وبرفضهم لنبي الله عيسى ثم لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مع أنهم مأمورون في كتبهم بالاعتراف بهما بل باتباعهما عند ظهورهما. وكان الاستكبار من أسباب هذا الرفض.

حركة التنوير: توصف الحركة التي ظهرت في القرن الثامن عشر في أوربا بحركة التنوير وبكونها كانت حركة عقلانية. لكنها هي الأخرى لم تنس نصيبها من الدعوة إلى الفحش وتزيينه.

الحضارة الرومانية:ورث الغرب من الحضارة الرومانية فكرة الجمهورية وفكرة الامبراطورية التي توسعت بغزو امبريالي فيه كثير من القسوة وإخضاع للشعوب كما يحدثنا المؤرخون الغربيون. وكانت قبل أن يجعل الامبراطور... النصرانية ديانة رسمية لها تعج بديانات كلها وثنية.

حركتا الإصلاح والبعث: من أوضح مظاهر الغرور في الثقافة الغربية أنهم يرون أن هنالك نقصا في كل حضارة أو ثقافة أو ديانة لم تمر بالتاريخ الذي مرت به حضارتهم وثقافتهم وديانتهم. فمما يأخذونه

على الإسلام مثلا أنه لم تحدث فيه حركة إصلاح كحركتهم تعيد تفسير الدين وتفهمه فهما جديداً يتناسب مع أهواء الثقافة الشائعة. وهم ما يزالون يأملون أن يحدث شيء من هذا حتى يقترب الإسلام من ثقافة الغرب وقيمه. وما زال بعض المغفلين في بلاد الإسلام يغرونهم بأن هذا سيحصل وأن الإسلام سيعود قريبا دينا معاصرا لا خلاف بينه وبين متطلبات الحضارة الغربية.

الليبرالية: تقوم الليبرالية على فكرة هي في جوهرها صحيحة، فكرة تقول إن لكل فرد حقوقا لا يجوز لأحد أن يتغول عليها حاكما كان أو أغلبية مواطنين. هذه الحقوق هي في الأصل حقوق أعطاها الله تعالى لعباده كما نجد ذلك في القرآن الكريم. فلما غلب الشرك وغلبت العلمانية على الحضارة الغربية فصلوا مفهوم هذه الحقوق عن أصله ثم لم يجدوا لها أصلا آخر يتفقون عليه إلا كونها وثيقة أجازتها الأمم المتحدة، أو وضعت في دستور بلد من البلاد. وبهذا صارت هذه الحقوق نفسها هي مما أعطاه بعض الناس لآخرين ولما كان من أعطوها من المتأثرين بقيم الشرك والاستكبار والفحش فقد فسروا كثيرا من هذه الحقوق بحسب أهوائهم تلك فجعولها أو أكثرها انحرافا عن الفطرة السوية. فسروها بحرية الكسب الذي لا قيود عليه فكان أن أدى إلى الرأسمالية، وكان مثلهم كمثل مدين قوم شعيب الذين اعترضوا على أوامر الله في الكسب.

{قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ} [هود: ٨٧].

ثم زعم بعضهم تمشيا مع فكرة الغرور تلك أن هذه الليبرالية مع أختها الدمقراطية (التي هي في الحقيقة متناقضة معها) هي نهاية التاريخ في مجال النظم السياسية والاقتصادية، وأن العالم كله سائر في الطريق الذي رسمته له وسارت فيه الحضارة الغربية. لكن يشكر للرجل أنه استثنى في كتابه المسلمين الذين قال إنهم ما يزالون يتصورون أن لهم بديلا هو خير من الليبرالية ومن الدمقراطية. ويشكر له ثانيا أنه تنازل عن تلك الفكرة السخيفة حين تبين له عورها.

وكما فسروا الليبرالية تفسيرا جعلها تؤدي إلى الرأسمالية فقد غلوا في تفسير ماتدعو إليه من حرية وجعلوا أكبر همهم فيها حرية الفحش الجنسي الذي أدى في ما أدى إليه من إضعاف للأسرة، وانحدار عظيم في معدلات الإنجاب حتى قال قائل منهم إننا لم نعد نحتاج إلى عدو خارجي يهزمنا بل نحن الذين نهزم أنفسنا بهذا النوع من الانتحار. وحتى قال كبير من كرادلتهم:

هل تحتاج الدمقراطية إلى صناعة فحش مقدارها بليون دولار لتكون دمقراطية حقا. وهل تحتاج إلى معدل إجهاض يبلغ عشرات الملايين».

قال الكاردينال الاسترالي جورج بل هذا الكلام في محاضرة ألقاها بالولايات المتحدة يحذر فيها الغرب من أن الإسلام قد يكون هو البديل

إذا لم يعدل الغرب من دمقراطيته التي وصفها بالفارغة والأنانية[٦] . بيد أنه رغم وجود أصوات معارضة كهذه فقد صارت الحرية الجنسية من أهم الحريات التي يتحدث عنها الغرب إن لم تكن أهمها.

الديمقراطية: في النظام الدمقراطي كما هو مطبق في الدول الغربية ودول أخرى كالهند محاسن كثيرة ولا سيما إذا ما قورن بنظم أخرى كالنظام الذي كان سائدا في الاتحاد السوفيتي، وككثير من النظم الدكتاتورية أو شبه الدكتاتورية التي ما تزال سائدة في بعض البلاد. أعمت هذه المحاسن كثيرا من الناس عن أن أصل الدمقراطية أصل شركي يعطي بعض البشرحق التشريع لبشر آخرين مع أن هذا الحق إنما هو حق لله تعالى. ونسوا أن ما فيها من محاسن ليس بخاص بها وأن كثيرا منه ليس من لوازمها، ونسوا أنه ليس فيها محتوى خلقي وأنها لذلك لم تمنع المستمسكين بها من الإقدام باسمها على استعمار الشعوب واحتلالها واسترقاق أناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

العلوم الطبيعية: من المعلوم أن أحسن ما في الحضارة الغربية هو تقدمها الهائل في مجال العلوم الطبيعية وما بني عليها من تقنية كانت هي سبب قوتهم الاقتصادية والعسكرية ووسيلتهم إلى استعمار كثير من بلدان العالم واحتلالها.

ليس في هذه العلوم نفسها ما يجعلها متناقضة مع عقيدة التوحيد أو يدعو إلى فحش أو استكبار، لكن الغربيين ربطوا بينها وبين كل ذلك بسبب قيمهم تلك المنحرفة:

١. غرتهم معرفتهم بالسنن التي أودعها الله تعالى في ما أسموه بالطبيعة، ومعرفتهم لذلك بأسباب كثير من المسببات فصار الغالب عليهم فصل هذا العلم عن الدين، واعتبار الطبيعة كونا مكتفيا بنفسه تفسر ظواهره الطبيعية بظواهر أخرى طبيعية ولا يجوز تفسيرها بأسباب خارجة عن هذا الكون، حتى صار هذا التفسير الإلحادي جزءا من مفهوم العلم كما قلت ذلك في عدة مناسبات وكتابات.

٢. وغلا بعضهم فصار يعتقد أنه لا حق إلا ذلك الذي يأتي عن طريق منهج هذه العلوم فأغراهم هذا بإنكار كل ما جاءت به الأديان اعتمادا على الوحي الإلهي.

٣. بل إن بعضهم صار يستغل هذه العلوم لتأييد الميل إلى الفواحش التي منها فاحشة الشذود وقالوا إنها عند بعض الناس شيء فطري موجود في «جيناتهم».

٤. ثم ارتبط هذا التطور العلمي بالغرور الأوربي إذ اعتقدوا أنهم إنما سبقوا غيرهم فيه بسبب عقلانيتهم التي ورثوها عن اليونان، وأن غيرهم لم ينجز ما أنجزوا لأنهم ذوو تفكير خرافي.

٥. وقد زاد من فتنتهم بهذا تخلف المسلمين في هذه المجالات، تخلفا بدؤوا يعزونه إلى الدين الإسلامي ويقول بمثل قولهم فيه بعض المرتدين من المنتسبين إليه.

طبيعة القيم الغربية

كيف صارت تلك المصادر والمكونات المتنافرة شيئا واحدا يسمى بالقيم أو الثقافة الغربية؟

١. صارت كذلك أولا لسبب ذكرناه سابقا وهو كونها كلها جزءا من تاريخهم الذي ما يزالون يدرسونه في مدارسهم وجامعاتهم، والذي ما يزالون يكتبون عنه ويتأثرون به.

٢. وصارت كذلك لأنه ما من مكون من مكوناتها إلا وله أنصار كبار من المفكرين أو من الجماعات أو الأحزاب.

وصارت كذلك لأن العلمانية وهي امتداد للشرك الموجود في كل تلك العناصر التي ذكرناها قد صارت هي الثقافة الطاغية التي يعاد تفسير العناصر الأخرى ـ بما فيها العناصر الدينية ـ لموافقتها. وصارت هذه الأديان تمدح ويتسامح معها بقدر تصالحها مع العلمانية وخدمتها لها. فها هو الفيلسوف الألماني الشهير هابرماس المعروف بعلمانيته. قال هذا الفيلسوف إن النصرانية لا غيرها هي الأساس النهائي للحرية والضمير وحقوق الإنسان والدمقراطية - وهذه هي أهم معايير الحضارة الغربية[٧].

وقبل قرن كتب عالم الاجتماع الألماني ماكس فبر كتابه الشهير عن الأخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية.

والنصارى بدورهم جعلوا يفسرون الدين تفسيرا يتوافق مع أهواء عصرهم. فأكثر كتابهم اليوم لا ينكرون الشذوذ ويفسرون قصة قوم لوط وما حصل لمدينتهم سودوم إما بأنها قصة مجازية، أو أن الذين أنكروا هذا الفعل من كتاب البايبل كانوا متأثرين بثقافة عصرهم.

٣. ولأن الفكر العلماني وما يستتبعه من قيم صار هو الفكر الطاغي الذي يمثل الإطار العام للثقافة الغربية وقيمها أضحت الخلافات خلافات في داخل هذا الإطار فلم تعد ذات خطر. ولذلك تجد . بل نجد الملحد والنصراني أستاذين في كلية واحدة، ونجد الشاذ وغير الشاذ جنديين في جيش واحد وصار النساء كلهن يتبعن مظهراً واحداً وهكذا.

٤. قد يقول قائل إننا نجد أمثلة لما عزوته إلى الحضارة الغربية في كل الأمم بما في ذلك الأمم الإسلامية. فما الذي يميز القيم الغربية في هذا عن غيرها؟ نقول إنه مما لا شك فيه أنه لا تكاد تخلو أمة حتى من فاحشة الشذوذ بعد أن سنها قوم لوط، وأن الشعور بالكبر قد يكون أيضا طابعا لأمة لا تنتمى إلى الحضارة الغربية. وأن الشرك موجود حتى بين المنتسبين إلى الإسلام. لكننا نقول أيضاً إن هنالك فرقا بين أن يكون الزنا أو الشذوذ أو الجهر بالسوء من القول في نظر الأمة جريمة أو ذنبا يستنكره مجتمعها ويعاقب عليه قانونها، وأن يكون أمرا مقبولا لا يستنكره مجتمع ولا يعاقب عليه قانون، وإن استنكره بعض الأفراد. هذا الأخير هو ما تمتاز به القيم الغربية الآن متأثرة بتاريخها ذلك. لقد أصبح

المستنكر فيها، وربما كان المعاقب عليه فيها هو استنكار الفحش ولا سيما فاحشة الشذوذ. فهذا الكاردينال راتزنجر الذي صار البابا الحالي يشكو من أن أحد القساوسة البروتستانت سجن لمدة شهر في السويد لأنه أنكر الشذوذ الجنسي استنادا إلى حجج من كتابهم المقدس!

٥. هذه العناصر ولا سيما عنصر الكبر هي التي زينت للغربيين احتلال الشعوب الأخرى واستعمارها واسترقاق بعض أهلها. لقد كانت الحركة الاستعمارية الاحتلالية حركة اشترك فيها أو شجعها أو وافق عليها قادة الثقافة الغربية كلهم إلا ما ندر. لم تكن حركة سياسية فحسب وإنما كانت حركة اشترك فيها الكتاب والشعراء والفلاسفة ورجال الدين كما بين بعض ذلك إدوارد سعيد في كتابه عن الثقافة والاستعمار.

ما العمل؟

إننا إزاء تحد كبير على ديننا وأمتنا فما ذا نحن فاعلون؟ ليس هذا بالسؤال الذي يختص بالإجابة عنه فرد واحد لأنه سؤال للأمة كلها علمائها وزعمائها وعامتها. فالإجابة التي أقترحها إنما هي جهد فرد مقل من أفراد هذه الأمة.

أرى:

أولاً: أن ننأى بأنفسنا عن مشاعر الحزن والضيق والأسى فإنها مشاعر سلبية لا تحل مشكلة خارجية وإنما تنشئ مشكلات نفسية.

وما أكثر ما يحذرنا كتاب ربنا من أمثال هذه المشاعر السلبية، وما أكثر ما يذكرنا علماؤنا الأفاضل بهذه المعاني القرآنية. فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول في معرض تعليقه على حديث «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ»:

وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزع وكل وناح كما ينوح أهل المصائب. وهو منهي عن هذا. بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى.

ثانياً: أن نكون على يقين بأن مداهنة أعداء الحق ومحاولة إرضائهم بالاستجابة لمطالبهم ـ وهي مطالب قديمة ـ بتغيير هذا الدين وإعادة تفسيره بما يتناسب مع أهوائهم المعاصرة، أن هذا فوق كونه خيانة علمية فإنه لن يجدي شيئا في حل المشكلة. نعم إن الأعداء سيرضون عن كل محرف للدين بمقدار تحريفه. لكن هذا التحريف لن يزيدهم إلا شراً؛ إذ يرون أن المسلم المحرف يقترب منهم مع أنهم ثابتون في مكانهم، فيطمعون منه ثم من غيره في قرب أكثر، ويحاولون أن يجعلوا منه وسيلة للكيد من غيره من إخوانه المسلمين. لكن القاعدة هي ما قال الله تعالى عن كل من زين له عمله أنه لن يرضى عنك رضى كاملاً إلا إذا اتبعت ملته:

{وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء:٨٩].

ثالثاً: إن الرؤساء الغربيين يصرحون بأن الحرب على ما يسمونه بالإسلام الراديكالي حربان حرب أيدلجية يقولون إنها لكسب العقول والقلوب، وحرب سنانية تساعد على تحقيق أهداف الحرب الأيدلجية. أما نحن فما نزال منتصرين في ما أسموه بالحرب الأيدلجية. إن ديننا هو الذي يزحف نحوهم ويكسب كل يوم من عقولهم وقلوبهم، وإن أديانهم وقيمهم وأيدلجياتهم هي التي توليه الأدبار. وهذا أمر يدعونا إلى المضي لا إلى التواني في نصرة ديننا بالحجج العقلية والعلمية والمعايير الخلقية. إن مشكلتنا هي في الحرب السنانية. لقد فرطت أمتنا في الأخذ بالأسباب العصرية لاكتساب القوة التي دعاها ربها إلى إعدادها. لقد آن الأوان لأن نبذل جهوداً كبيرة في اكتساب العلوم الطبيعية المرتبطة بالتقنية والمساعدة على اكتساب القوة الاقتصادية والعسكرية. ويجب أن تكون هذه الجهود على مستويين، مستوى شعبي عام ينشر مبادئ هذه العلوم بين الناس ويجعلها جزءا من ثقافتهم الشعبية، ومستوى تخصصي تتعاون فيه الدول العربية على الأقل حتى يكون لنا علماء مبرزون مكتشفون ومخترعون ومنظرون في كل المجالات المرتبطة بالتقدم التقني.

إننا لا نريد أن نكون أقوياء لنعتدي على غيرنا، وإنما لنرهب ونردع من تحدثه نفسه بالاعتداء علينا. إننا نعلم أن السلم في مصلحتنا، نعلم هذا من ديننا ومن تجاربنا، فنحن حريصون عليه واثقون بأن عاقبته خير إن شاء الله.

رابعاً: بما أن الغرب ليس كله كتلة واحدة صماء معادية للإسلام، بل فيه جاهلون بهذا الدين، وفيه مغررون، وفيه منصفون مدافعون عن حقوق الناس، وفيه عقلاء يرون أنه ليس من مصلحتهم شن حروب شاملة دعائية كانت أم قتالية على الثقافات الأخرى، وفيه ... وفيه ... فيجب عند المعاملة أن لا نشمل الجميع بخطاب واحد لا يميز بين محق ومبطل، ومعتد ومنصف. إن التفرقة بين هذه الأصناف ومعاملة كل بحسب موقفه أمر يتطلبه العدل الذي يقوم عليه بنيان الدين الحق، ثم إنه سياسة مربحة تؤدي إلى نتائج أفضل.

خامساً: لكن التقدم الحقيقي لأمتنا لا يكتمل إلا بتقدم آخر لا يحتاج منا إلى جهد كبير. فكما نأخذ بوسائل عصرنا في التقدم العلمي التقني، فكذلك يجب أن نعتبر مقتضياته في الإصلاح السياسي. إننا لا نريد أن نكون أمة تابعة تترك الأصالة لغيرها ثم تقلده في كل ما رآه مناسبا له من مؤسسات ومبادئ وأسماء. نريد أن نكون أمة أصيلة تؤمن بأن كتاب ربها هو دستورها الأعلى، ثم تأخذ منه المبادئ السياسية العامة، ثم تنشئ لنفسها من المؤسسات ما يناسب تلك المبادئ من مؤسسات تتناسب مع عصرها. إن كل من له أدنى معرفة بالإسلام يعلم أن مبادئ مثل حكم القانون، والشورى، واختيار الحكام، وحرية الرأي وحقوق الإنسان التي صار الناس يربطونها بالدمقراطية هي مبادئ إسلامية بينتها النصوص وطبقها النبي وخلفاؤه الراشدون.

وإذا كان مثل هذا الإصلاح أمرا يستوجبه ديننا وتستدعيه ظروفنا، فإنه أيضا أمر لازم لتحسين صورتنا العالمية التي صارت ترتبط في أذهان الكثيرين ولا سيما في الغرب بالدكتاتورية والفيودلية والثيوغراطية ويقال عن جهل أو سوء قصد إنها من تعاليم ديننا.

(1) J.M. Roberts, History of the World, Penguin Books, 1980, p. 511

(٢) **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية**، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المجلد التاسع، كتاب المنطق، ص ٨٢.

(٣) **كتاب سيبويه** : أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، المجلد الأول، عالم الكتب، بيروت، ص٣١.

(4) K.J. Dover, Greek Homosexuality, 1978,

(5) Kevin Philips, *American Theocracy*, Viking Penguin, 2006, p.125

(6)
http://www.theage.com.au/articles/2004/11/11/1100131136231.html?oneclick=true

http://www.theage.com.au/articles/2004/11/11/1100131136231.html?oneclick=true

(7) http://www.cathnews.com/news/411/131.php

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الأمانة العامة للأوقاف

مجلة البيان

دور الحكومات والمؤسسات

وتقويم تجربتها بعد أزمات التطاول على الثوابت

رائد حليحل

الإعمال الخيرية
Benevolent Act Makarat

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [سورة آل عمران: ١٠٢].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [سورة النساء: ١].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [سورة الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

يقول الله عزَّ وجل: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ} [سورة آل عمران: ١٤٤].

فالآية الكريمة صريحة توضح لنا أن حرمة رسول الله بعد مماته، كحرمته قبل مماته، وعلى أتباعه أن يثبتوا على دربه ونهجه، وبذلك

يكون لهم الفلاح المطلق الذي يشمل الدنيا والآخرة كقوله سبحانه: {**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**} [سورة الأعراف: ١٥٧].

فلا بد إلى جانب الإيمان والاتباع من تعزير ونصرة، فالله عزَّ وجلّ الذي امتن عليه بنصره: {**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**} [سورة التوبة: ٤٠]. وبيّن أيضاً منّته بنصرة المؤمنين له {**وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ**}[سورة الأنفال: ٦٢].

وهذه النصرة وإن كانت متعينة على كل مسلم، كلُ بحسبه، إلا أنها من الأمور الجسام العظام التي لا بد من إحالتها إلى ولاة الأمر، لأنهم الأقدر والأجدر والأولى بالقيام بذلك على حدّ قوله سبحانه: {**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**} [سورة النساء: ٨٣].

وإنا لو أمعنا النظر «شرعياً وعقلياً» فإنا نجد أن الحكومة المسلمة أو الدولة أو قل السلطان المسلم، إنما هو مفوض من قبل الأمة وموكل

عنها للقيام بحفظ الدين وإصلاح الدنيا، وإن المتأمل لكلام الله عزَّ وجلّ مثلاً: {**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ**} [سورة المائدة: ٣٨] وقوله: {**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ**} [سورة النور: ٢] فنجد أن الخطاب موجه لعموم الأمة، مع ما اتفقت عليه الأمة أن الحدود يقوم بها السلطان الممكن. وعليه فإن كل خطاب للأمة يعني السلطان أصلاً وتبعاً فهو داخل في الخطاب الشرعي وكذا هو مكلف نيابة عن الأمة فصار دوره مضاعفاً، فالنصرة للدين عليه أوجب من عموم الأمة، ولو أردنا أن نتفحص معنى الدولة لنخلص من ذلك إلى معرفة دورها وواجباتها ومسؤولياتها. فإنا نجد في تعريف الدولة أن المفكر الفرنسي يعرفها بأنها [مجموعة من الأفراد مستقرة في إقليم محدد، تخضع لسلطة صاحبة سيادة، مكلفة أن تحقق مصالح المجموعة وملتزمة في ذلك مبادئ القانون].

ويـذهب عـالم الاجتمـاع الأمريكـي (سمنـر) إلى أن مفهـوم النظـام الاجتماعي يتألف من جانبين

الأول: الفكرة أو المبدأ المشترك بين أبناء المجتمع.

والثاني: البناء الذي هو المؤسّسات التي تمنح الفكـرة والمبـدأ الطـابع النظامي وتضعها موضع التطبيق بشكل يحقق مصالح الإنسان(١).

إذن فالدولة أو ما يسمى العقد الاجتماعي: أن يتنازل أفـراد المجتمـع عن بعض حرياتهم للسلطة مقابل تنظـيم شـؤونهم وإدارتهـا بمـا يحقـق المصلحة للمجموع(٢).

يتضح من ذلـك أن الـدول لا بـد أن يكـون أداؤهـا انعكاسـاً لحـال وواقع ورغبات الأمة، فكأنها بمثابة الموكَّل الذي لا يحق له التـصرف إلا وفـق رغبـة موكِّلـه، بـل علـى الحكومـات أن تـسعى لتحقيـق رغبـات المواطنين لاسيما إذا كانت تتوافق مع مسلماتهم وثوابتهم وإلا فإنّهـا لا تكون حكومة لهم بل لغيرهم.

وحتى يتجلى الأمر أكثر من زاويـة الـسياسة الـشرعية فإنـا نجـد أن القرآن الكريم قد صدع بالدور الذي ينبغي أن يقوم بـه الـسلطان، فقـد قال الحق سبحانه وتعالى: {**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**}

(1) بناء المجتمع الإسلامي ونظمه د. نبيل السمالوطي ص ٥٣.
(2) الحرية أو الطوفان ص ٢١.

[سورة الحج: ٤١].

قال فيهم ابن أبي نجيح: هم الولاة[١].

مكناهم:

ثبتناهم وملكناهم، والتمكين في الأرض قوة التصرف والاستظهار بأسباب الدنيا وأن يكون في منعة من العدو وسعة في الرزق وحسن حال[٢].

والآية تشمل كل من قام بنصرة دين الله على الوجه الأكمل[٣].

وسبحان الله ما أجل إعجاز كلام الله عزَّ وجلّ، فقبل هذه الآية الكريمة مباشرة نجد قوله سبحانه وتعالى: {**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**} [سورة الحج: ٤٠] فالممكّن عليه أن ينصر الله لينصره؛ لأنه مصدر النصر، فهو القوي العزيز، وبعدها قوله: {**وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۞ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۞ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**} [سورة الحج من الآية ٤٢ حتى ٤٤].

فالممكّن همّه إقامة دين الله عزَّ وجلّ، وهو وصية الله عزَّ وجلّ لأولي العزم من الرسل كما قال سبحانه: {**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا**

(1) القرطبي ج ١٢ ص ٣.
(2) التحرير والتنوير جـ ٤ ص ٣٦.
(3) أضواء البيان ج ٥ ص ٢٧٢

وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} [سورة الشورى: ١٣].

ومعنى: أقيموا الدين: اجعلوه قائماً، يريد دائماً مستمراً محفوظاً مستقراً من غير خلاف فيه ولا اضطراب(١).

وقيل في معناه: اعملوا به قاله السدّي، وقال مجاهد ادعوا إليه وقيل جاهدوا عليه من عانده(٢).

فالدولة الإسلاميّة هي سور الأمة وتقوم بحراسة الناس في دينهم ودنياهم وقد قال الغزالي **(اعلم أن الشريعة أصل والملك حارس، وما لا أصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع)** (٣)، فواجب الدولة القيام بواجب الدّعوة، كما أن إحدى مسؤولياتها التَّعليم الديني ومكافحة العبث واللهو والمجون والإباحة والإلحاد، وعليه فقوة التنفيذ التي تملكها الدولة يجب أن توجه إلى خدمة الإسلام، فالإيمان هو عماد الدولة وسرّ قوتها، والعقيدة هي أيديلوجيتها وسبب نجاحها ـ نقلاً عن الرسائل لحسن البنا(٤).

ولذلك فإنه لا يوجد ـ في التصور الإسلامي ـ دولة أو سلطة غير

---

(1) القرطبي جـ ١٦ ص ١١.

(2)النكت والعيون للماوردي جـ ٤ ص ٦٤.

(3) نظريات المعرفة والدولة والمجتمع ص ٩٥.

(4) نظريات المعرفة والدولة والمجتمع ص ٩٠ ـ ٩٤.

منسجمة مع عقيدتها، فضلاً عن كونها متخلية عنها، بل كما قال الإمام الماوردي رحمه الله: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع».

وقد أورد قول الشاعر

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ثمَّ يبين أن الشرع قد فوض الأمور إلى الولي في الدين قال الله عزَّ وجلّ: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**} [سورة النساء: ٥٩][1].

وفي سياق موضوعنا هذا من استراتيجيَّة المواجهة والمهام الملقاة على عاتق الحكومات بعد أزمات التطاول على ثوابتنا، فإنني أجد كلام الإمام الماوردي عند حديثه عن واجبات الإمام وما يلزمه أن يقوم به من واجبات، منطبقة على واقعنا، ليعيد حكام المسلمين النظر في واقعهم، فإنهم إن أقاموا الدين أرضوا ربهم ثمَّ ثبتوا ملكهم وأرعبوا عدوهم وتألفوا قلوب رعيتهم فيكونون بذلك من خير الناس الذين قال عنهم رسولنا ﷺ: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم**» [صحيح مسلم].

(1) الأحكام السلطانية ص ٥.

فلنتأمل هذه الواجبات وسأذكر بعضها كما أوردها الماوردي رحمه الله:

- حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما أجمع عليه سلف الأمة ، فعليه عمل مايلزم ليكون الدين محروساً من الخلل ، والأمة ممنوعة من الزلل.
- حماية البيضة والذب عن الحريم.
- إقامة الحدود لتصان محارم الله عن الانتهاك.
- تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة، حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون محرماً أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دماً.
- جهاد من عاند الإسلام بعد الدّعوة حتى يُسلم أو يدخل في الذمة ليقام بحق الله في إظهار دينه على الدين كله[1].

ثمَّ يردف قائلاً: هذا وإن كان مستحقاً عليه بحكم الدين، ومنصب الخلافة، فهو من حقوق السياسة لكل مسترع لقول النبي ﷺ «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**».

ويقول: وإذا قام الإمام بما ذكرناه من حقوق الأمة فقد أدى حق الله فيما لهم وعليهم

ووجب له عليهم حقان «الطاعة والنصرة»[2] فتأمل يارعاك الله: وبعد هذا لا يسعنا إلا النصح للولاة أن يقوموا بدورهم في نصرة الدين

(1) الأحكام السلطانية ص ١٨ ـ ٢٦.
(2) الأحكام السلطانية ص ١٩.

فإنه طريق التمكين بنص كلام رب العالمين {وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ} [النور: ٥٥].

يقول الإمام الجويني عن الإمامة والسلطة: رياسة تامة وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا، مُتَضمَّنها حفظ الحوزة ورعاية الرعية وإقامة الدّعوة بالحجة والسيف، وكفّ الجنف والحيف...[1].

فعلى الولاة أمور منها: ترقية مدارك الأمة رجالاً ونساءً، وصيانة نشئها عن النقائص، ونشر مزايا الإسلام وحقائقه رجاء تعميمه في البشر.

ومعنى حماية البيضة والحوزة: حفظ الأمة من اعتداء عدوها عليها وحفظ بلاد الإسلام من أن ينتزع عدوها قطعة منها أو يتسرب إليها، فمن مقاصد الإسلام أن تكون الأمة مرهوبة الجانب محترمة منظور إليها في أعين الأمم الآخرى نظرة المهابة والوقار «نصرت بالرعب» حديث صحيح وقوله سبحانه: {**وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**} [سورة الأنفال: ٦٠][2].

(1) اختصار غياث الأمم ص ١٩.

(2) أحوال النظام الاجتماعي في الإسلام للطاهر بن عاشور ص ٢٠٣.

(وحتى لا يساء الفهم فإن مجاهدة غير المسلمين لا تكون في سبيل هوى شخصي أو رغبة في التسلط بل لتمكين العدل ونشر المفاهيم السامية التي شاء الله نشرها بين الناس ليضمن لهم السعادة في الدارين) عن المفتي حسن خالد بتصرف.

ولذلك فإن أول عمل للمجاهد هو الدّعوة (**ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم**) [صحيح مسلم][١].

فمن المتقرر أنه لا خلاف بين الفقهاء في أن أهم مسؤوليات الإمام وأوجبها إقامة الدين. إذ وجوب الإمامة حكم شرعي معلل بحفظ الدين والأمة وسياسة شؤونها[٢].

بل إن الأمر أعظم من ذلك فقد ذكر الجويني فيما يوجب الانخلاع عن الإمامة أمور منها الإنسلال عن الدين: فلو فرض انسلال الإمام عن الدين لم يخف انخلاعه وارتفاع منصبه وانقطاعه[٣].

فعمل الدولة المسلمة يتلخص في أمرين اثنين «أمر بالمعروف ونهي عن المنكر».

يقول الله عزَّ وجلّ: {**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**} [سورة آل عمران: ١٠٤]، وهذا العمل هو سرّ خيرية الأمة: {**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**

(1) معالم النظام الاجتماعي في الإسلام ص ٣٩.
(2)الحرية أو الطوفان ص ٢٣٠.
(3) اختصار غيات الأمم ص ٣٩.

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} [سورة آل عمران: ١١٠].

فعلينا جميعاً وعلى الدول تحديداً أن تنذر أنفسها لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولا يجوز أن نحصر دورنا بردّات الفعل. يجب أن يكون في الأمة جماعة منتصبة للقيام بأمر الله، وقد ورد عن عمر بن الخطاب قوله: (من أراد أن يكون من هذه الامة فليؤد شرطها أي بالدعوة)[١] وقد ذكر العلماء فرضيته «الأمر بالمعروف» على المحتسب بحكم الولاية[٢].

وحديث الرسول ﷺ واضح في هذا السياق «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» [صحيح مسلم من حديث أبي هريرة].

وقد شرحه العلماء رحمهم الله: فذكر القرطبي نقلاً عن العلماء: الامر بالمعروف باليد على الأمراء، وباللسان على العلماء، وبالقلب على الضعفاء[٣].

والامر بالمعروف أمر إيجاب بإجماع الأمة وهو فرض كفاية إن قام به البعض سقط عن الباقين وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف، ثمَّ إنه قد يتعين كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا

(1) الدر المنثور للسيوطي وانظر ابن كثير جـ ٢ ص ١٦٢.
(2) الأحكام السلطانية ص ٢٩٩.
(3) تفسير القرطبي جـ ٤ ص ٤٩.

هو أو لا يتمكن من إزالته إلا هو»[١].

وفي فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء في المملكة السعودية: إن تغيير المنكر ثلاث درجات: باليد للقادر عليه كالحكام فإن لم يتمكن فبلسانه كالعلماء وإلا فبالقلب، فالمسلم يقوم بتغيير المنكر قدر استطاعته، ومن فرط فيه وهو قادر كان فيه شبه ممن قال الله[٢] فيهم: {**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۞ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**} [سورة المائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

بل بعض العلماء صرح أنه ما دامت الحدود قد أوكلت إلى الإمام فكذا تغيير المنكر[٣].

والإنكار له مراتبه التي ينبغي أن نتدرج فيها من الأدنى إلى الأعلى فأولاً: {**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**} [سورة النحل: ١٢٥]. مروراً بقوله {**وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**} [سورة التوبة: ٧٣]. وصولاً إلى قوله سبحانه {**وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا**} [سورة الفرقان: ٥٢].

وهذه المجاهدة تكون بكل ما يملك الإنسان كما قال سبحانه {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ**

(1) شرح النووي جـ ١ ص ١٣١.
(2) جـ ١٤ ص٤٨٨ ـ ٤٩٥.
(3) سلوة الأحزان جـ ١ ص ٥٤.

لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة الصف: ١١].

بعد كل ما تقدم فإنه لا يسع الولاة التخلي عن إنكار المنكرات العادية فضلاً عن التطاول على المقدسات ولئن كان واجباً على المحتسب المعيّن من قبل الوالي الإنكار بل البحث عن المنكرات الظاهرة لإنكارها فما بالك بمنكرات فيها اعتداء صارخ وتحد سافر وتطاول عجيب على رموز ومقدسات بل ثوابت ومسلمات.

إننا عندما قصرنا بواجب الدّعوة تطاول علينا هؤلاء الأقزام، فلنعد إلى رشدنا ولنعلم أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم.

فواجب الدولة عظيم ـ إرضاءً لله وقياماً بالواجب وآداءً للأمانة وقطعاً لدابر الفتنة وإننا وإن كنا شكرنا وما زلنا نشكر بعض المواقف الكريمة إزاء بعض الممارسات والأقوال إلا أننا وللإنصاف نقول بعد علمنا بالواجب الملقى على عاتق الحكام وبعد معرفتنا لما يمكنهم فعله وبعد مشاهدتنا لعظيم التطاول من أعداء الأمة فإننا لم نعد نرضى بالقليل لأن جهد المقل لا يقبل ممن يمكنه إعطاء المزيد وعلى دولنا في تعاملها مع الآخرين أن تسلك دربها بوضوح وثبات وجرأة فعليها :

١. حمل نور الإسلام وهذه الرسالة العظيمة إلى العالم كله دون خجل ولا خوف.

٢. الوقوف إلى جانب الحق والعدل في القضايا الدولية.

٣. مساعدة كل من تقدر على مساعدته من المستضعفين.

ولتعلم دولنا أنها في تعاملها مع الدول غير المسلمة هي ملزمة بعهود توافق عليها هي ولا تفرض عليها فرضاً وليكن شعارنا في ذلك قول الله: **{إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}** [سورة التوبة: ٤] وقوله: **{إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}** [سورة التوبة: ٧]. وعليه فعلى الدول المسلمة مسؤوليات.

١. في مجال التَّعليم ما دام أن هناك اتفاقيات بين الدول «تعاون ثقافي» فأين التطبيق العملي لذلك ـ أين دور الملحقيات الثقافية لدولنا ـ أين الكتب التي تترجمها لتقدمها لتلك الشعوب، لماذا لا نستفيد من تجارب الآخرين «تصدير الثورة».

٢. في مجال الدّعوة الذي أهملته الدول عموماً فصار عبئاً على جمعيات لا تقدر على هذا الحمل أين إعداد الدعاة لبلاد غير المسلمين **«إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»** [حديث صحيح].

أين نشر تراثنا الإسلامي وأين دور الدول في إنشاء المراكز الإسلاميّة أو على الأقل دورها في التنسيق بين المراكز القائمة في بلاد غير المسلمين.

٣. في مجال الإعلام: لم نستغل الإعلام لبيان سماحة ديننا ونشر تعاليمه ولا حتى الدفاع عن مقدساتنا بل للدفاع عن الزعماء أو

لتمضية الوقت ومجرد التسلية دون رسالة أو هدف.

٤. على الصعيد الدبلوماسي: ألا يمكن استدعاء سفراء بلادنا من البلاد المسيئة للتعبير عن الاحتجاج، هذا أمر سائغ في العرف الدبلوماسي بل أبعد من ذلك لماذا يجوز قطع علاقات بين دول «شقيقة أحياناً» لخلاف شخصي بين زعيمين، فإذا جئنا لرعاية المقدسات بدأت الحجج تظهر إن ذلك غير ممكن. بل يمكن ما هو أكبر من ذلك إبلاغ سفير البلد المسيء أنه غير مرغوب به في بلاد الإسلام ولنا في فعل «تشافيز- الرئيس الفانزويلي» خير برهان خلال حرب الصهاينة على لبنان(الأخيرة).

٥. على الصعيد القانوني وعلى مستوى الهيئات الدولية وذلك عبر التبني المباشر لمتابعة وملاحقة ومقاضاة أهل الاعتداء على مقدساتنا والسعي لإعداد ميثاق عالمي لاحترام المقدسات، والضغط على حكومات العالم لسنّ القوانين الكفيلة بمنع التجديف والسعي الدؤوب لتأسيس محكمة عالمية لملاحقة ومعاقبة المتطاولين، والسعي الجاد لوضع اتفاقية عالمية لوضع حد ومعيار حقيقي لحرية الرأي، ومنع استغلال ذلك، والضغط على الدول والمؤسسات - بما حبانا الله من وسائل ضغط - لمراعاة هذا الأمر(أعني احترام مقدساتنا).

٦. على المستوى الاقتصادي، توضع شروط مسبقة من الاحترام تسمح بالتعامل وتوضع بنود جزائية، ويتم التهديد باستخدام سلاح المقاطعة الذي يجري العمل به في العالم كله، بل يوجد ما هو أشد منه «الحصار».

إذن لـدينا وسـائل كـثيرة، ولـن نـستخدمها إلا إن وجـدت العزيمـة الصادقة. وذلك عندما نخمل الإسلام بجد، (وكل إناءٍ بالذي فيه ينضح).

هذا على صعيد الدول الإسلاميّة منفردة وإلا فإن التنسيق والتّعـاون والتوافق فيما بينهم على مثل هذه النوازل هو الأكمـل والأفـضل كمـا يفعل القوم، فاجتماعنا على حقنـا أولى مـن اجتمـاعهم علـى باطلـهم، واجتماعنا على تراثنا الذي نعتز بـه أولى مـن اجتمـاعهم علـى هرطقـة جديدة عليهم ، ومبتدعة فيهم «اللادينية» والله من وراء القصد.

أما المؤسّسات الرسمية فساقتصر على ثلاثة منها.

أولاً: جامعة الدول العربيّة:

وهي منظمة إقليمية تجمع بين الأقطار العربيّة وهـي بمثابـة إطـار للتعاون الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتنسيق السياسي.

فقد أنشأت بغرض توثيق الصلات بين الدول العربيّة وتنسيق الخطط السياسية تحقيقاً للتعاون بينهـا وصـيانة لاسـتقلالها وسـيادتها، وتطـوير التعاون العربي في جميع المجـالات الـسياسية والاقتـصادية والاجتماعيـة والثقافية، ودعم التعاون مع الهيئات والمنظمات الدولية.

نعم لقد كان موقف الجامعة وأمينها العام متعاطفاً جـداً، لكنـه غـير كاف، إذ لديها من القدرة ما يجعلـها موهلـة لأن تعمـل الأفـضل، ولـو على الصعيد الإعلامي والثقافي، كان المرجو أن تنعقد قمـة طارئـة ولـو علـى مـستوى وزراء الخارجيـة تخـصص لبحـث ظـاهرة التطـاول الـتي

امتدت لتنال رموز ومسلمات بل ومقدسات هذه الأمة، وإن ترك لهؤلاء ما أرادوا دون التصدي الرادع. فأين سيصبح مصير (رسالتنا الخالدة لأمة عربية واحدة)

ثانياً: منظمة المؤتمر الإسلامي:

والتي تضم في عضويتها سبعاً وخمسين دولة ومنظمة دولية تحشد مواردها وتوحد جهودها وتتحدث بصوت واحد للدفاع عن مصالحها وتأمين رقي ورفاهية شعوبها وكل المسلمين في العالم.

وللمنظمة أهداف معلنة:

١- التضامن الإسلامي بين الدول الأعضاء.

٢- التعاون بين الدول الأعضاء في المجالات الاقتصاديّة والاجتماعية والثقافية والعلمية.

٣- كفاح جميع الشعوب الإسلاميّة من أجل الكرامة والاستقلال والحقوق الوطنية.

فلماذا لم يظهرهذا التضامن خلال أزمات التطاول الأخيرة ، وأين الخطوات العملية كفاحاً وتعاوناً من أجل قيمنا وكرامتنا .

ويتبع لها المنظمة الإسلاميّة للتربية والعلوم والثقافة:

وأهم أهدافها:

١. دعم الثقافة الإسلاميّة، وحماية استقلال الفكر الإسلامي من

عوامل الغزو الثقافي والتشويه، والمحافظة على معالم الحضارة الإسلاميّة وخصائصها المتميزة.

٢. حماية الشخصية الإسلامية للمسلمين في البلدان غير الإسلاميّة.

ويجدر الاعتراف أن هذه المنظمة كانت من أول من أصدر بياناً مستنكراً للهمجية «الكرتونية» ولن ننسى بيان مكة المكرمة قبيل حج ١٤٢٦هـ ولكن هذا لوحده غير كاف، فلا بد من تفعيل خطوات منها استصدار قانون دولي يحرم بل يجرم التطاول على مقدساتنا وتحديداً «الذات الإلهية ـ القرآن الكريم ـ شخص الرسول ﷺ .

لو أن هذه المنظمة وهي تحوي ثلث سكان المعمورة أخذت موقفاً واضحاً عملياً ثابتاً فلا شك أننا سنحصد ثماره الطيبة، وإننا نشد على يد أمين المنظمة العام بما يعرف عنه من تمسك بالدين أن يسعى لوضع برنامج عملي، وإلا فإن القوم إن رأووا منا تهاوناً تطاولوا أكثر ولات ساعة مندمٍ.

وعلى هذه المنظمة أخذ زمام المبادرة بمناقشة القوم في عقر دارهم أو دعوتهم لديار المسلمين للمشاركة في مؤتمرات وحوارات ثقافية ما دام ذلك من تخصصها.

ثالثاً: الأمم المتحدة:

إن المتأمل في ميثاق الأمم المتحدة يراه ينص على احترام الشعوب وثقافتها. ومما ورد في ميثاقهم [نحن شعوب الأمم المتحدة وقد آلينا على

أنفسنا أموراً منها أننا نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد، وفي سبيل هذه الغايات اعتزمنا.

١ـ أن نأخذ أنفسنا بالتسامح وأن نعيش معاً في سلام وحوار.

ومن مقاصد الأمم المتحدة:

١. حفظ السلم والأمن الدولي، وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعالة لمنع الأسباب التي تهدد السلم وإزالتها، وتتذرع بالوسائل السلمية وفقاً لمبادئ العدل والقانون الدولي لحل المنازعات الدولية التي قد تؤدي إلى الإخلال بالسلم أو لتسويتها.

٢. إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق.

٣. تحقيق التعاون الدولي على حل المسائل ذات الصفة الاقتصاديّة والاجتماعية والثقافية والإنسانية، وعلى تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للناس جميعاً بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين.

هذه بعض الفقرات الواردة في الميثاق مما يوجب على هذه المنظمة الدولية التدخل لوضع حدّ لمثل هذه الاعتداءات التي تزدري المسلمين بسبب دينهم وتدعو إلى الكراهية التي قد تسبب نزاعات وتهدد السلم العالمي، وإن المتبصر بالقانون الدولي ليعلم أن الدول الإسلاميّة لو اتخذت موقفاً واحداً واضحاً فإنه يفرض نفسه ليصبح في العرف السياسي أمراً ملزماً تجب مراعاته ويمنع من تكراره، وكلنا يعلم أن دولاً

تأخرت في انضمامها لهذه المنظمة رغم مالها من مكانة عالية وبعض الدول لا تدخل في اتفاقيات ـ دولية ـ لأنها تعارض مصالحها ـ وغير ذلك صوراً من قطيعة بين الدول لمجرد ارث تاريخي ونحو ذلك، فحجة حكوماتنا بأنها ملزمة بعهود ونحوها تمنعها من أخذ موقف أمر غير واقعي. فما على الدول المسلمة إلا مراجعة نفسها وحساباتها، وما كنا نذكره في أول الأزمة أن ردّات الفعل شعبية وليست رسمية ـ حتى لا نحرج حكوماتنا ـ لم يعد أمراً يحسن ذكره بل أصبح معيباً لأن فيه إعفاءً للمستطيع وتكليفاً للعاجز، فلتبادر الحكومات بعمل واضح ، والشعوب كلها متعطشة ليوم نرى فيه دينها وثقافتها بل وتراثها مهاباً مصاناً محترماً عزيز الجانب.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للبريات وبعد:

يقول الله عزَّ وجل: {**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**} [سورة الحجر: ٩]. فلا خوف على الإسلام ولا على مقدساته، فهو محفوظ بحفظ الله وحتى رسولنا الكريم ﷺ قد كفاه الله شرّ هؤلاء: {**إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**} [سورة الحجر: ٩٥].

فسعينا ليس للمحافظة على هذا الدين، بل من أجل أن نحفظ أنفسنا بهذا الدين، ومن أجل أن يكون لنا دور في تبليغ هذه الرسالة الخالدة والتي بنا أو بغيرنا ستمضي إلى ما شاء الله فما علينا إلا أن نُقدِم ولا نحجم ويكون نصب أعيننا قول الحق سبحانه: {**وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**} [سورة التوبة: ١٠٥].

وإنني أقترح على مؤتمركم الكريم تشكيل لجنة متابعة لحمل ورقة عمل للحكومات والمؤسسات الرسمية لتقوم بدورها ـ الواجب عليها ـ وتحميلها المسؤولية التاريخية ، وأرى حتى يعلم كل مسيء أو من تسول له نفسه ذلك أننا على العهد باقون بأن ننظم يوماً عالمياً (رسمياً وشعبياً) يتم الإعداد الجيد له وعنوانه العريض (الذبّ عن مقدساتنا)

وذلك بتنظيم (ندوات ـ محاضرات ـ مهرجانات ـ معارض) وبمشاركة إعلامية شاملة. ويمكن عند اعتماده الاتفاق على تفاصيل مهمة لإنجاحه.

إن نصرتنا لديننا امتحان واختبار لما في قلوبنا، فإذا أردت أن تعرف منزلتك عند الله فانظر إلى منزلة دينه في قلبك، وإن ما وقر في القلب لا بد أن يصدقه العمل، أسأل الله أن يستعملنا جميعاً في طاعته إنه جواد كريم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه الفقير إلى الله رائد بن شفيق حليحل

طرابلس الفيحاء

الجمعة ٢٣/ ١٢/ ١٤٢٧هـ

١٢/ ١/ ٢٠٠٧م

المصـــادر*

١. بناء المجتمع الإسلامي ونظمه د. نبيل السمالوطي ص ٥٣.
٢. الحرية أو الطوفان د. حاكم المطيري.
٣. تفسير القرطبي.
٤. التحرير والتنوير لابن عاشور.
٥. أضواء البيان للشنقيطي.
٦. النكت والعيون للماوردي.
٧. نظريات المعرفة والدولة والمجتمع د. أحمد موصللي،
٨. الأحكام السلطانية للماوردي.
٩. اختصار غياث الأمم لإمام الحرمين ـ اختصره محمد شاكر الشريف.
١٠. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام للطاهر بن عاشور.
١١. معالم النظام الاجتماعي في الإسلام ـ يحيى أحمد الكعلكي.
١٢. الدر المنثور للسيوطي.
١٣. تفسير ابن كثير.
١٤. شرح النووي على صحيح مسلم.
١٥. فتاوى اللجنة الدائمة.
١٦. سلوة الأحزان للمشتولي.

* حسب ورودها مرتبة في البحث.

خلاصة

لا بد إلى جانب الإيمان والاتباع من تعزير ونصرة الأمة كلها مخاطبة بنصرة الدين، وولاة الامر كذلك وزيادة فإنهم مفوضون من قبل الأمة ونواب عنها في تطبيقهم الشرع.

الدولة لها أربعة أركان «أفراد ـ إقليم ـ سلطة ـ سيادة» وعلى الدولة المحافظة على فكر شعبها وأن يظهر عليها ذلك ـ التمكين ضريبته النصرة.

أسمى مهمة هي إقامة الدين.

واجبات السلطان يجمعها حماية البيضة.

مسؤولية الرعاة عظيمة.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سرّ خيرية الأمة.

السلطان أولى الناس بالأمر والنهي.

السعي لنشر الإسلام خير وسيلة لمنع التطاول.

تعاملنا مع أمم الكفر محكوم بقاعدة «فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم» مسؤولية الدولة في مجالات عدّة: (تعليمي ـ دعوي ـ إعلامي ـ دبلوماسي ـ قانوني ـ اقتصادي).

تفعيل ميثاق جامعة الدول العربيّة ـ تحقيق أهداف منظمة المؤتمر الإسلامي ـ الاستفادة من ميثاق الأمم المتحدة.

تشكيل لجنة متابعة واتصالها بالجهات الرسمية عموماً لتتحمل مسؤوليتها.

تنظيم يوم عالمي (رسمي وشعبي) لتفعيل نصرة المقدسات الشرعية.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الأمانة العامة للأوقاف

مجلة البيان

وجْهُ الإخفاقات

في المواقف القريبة للأمة في تعظيمها للحرمات

د. الشريف حاتم بن عارف العوني

عضو مجلس الشورى، والأستاذ المشارك في جامعة أم القرى

الإعمال الخيرية
Benevolent Act Makarat

المقدمة

الحمد لله الذي وسع كل شيء برحمته، والصلاة والسلام على إمام المرسلين وعلى أزواجه وذريته.

أما بعد: فإن من سنة الله تعالى في الأرض أن يتدافع الحق والباطل، وهذا من أسباب بقاء الحق واستمرار وجوده ظاهراً قويّاً: {وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ} [البقرة: ٢٥١]: {وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠].

كما أن هذا الصراع مآلُهُ مَحْسومٌ، لا يَشُكُّ فيه أحدٌ، وهو أنّ الغَلَبَةَ للحقّ سبحانه؛ وما دام الله تعالى هو الحق فلن يُكْتَبَ لغير الحقِّ بقاءٌ وخلود: {بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [الأنبياء: ١٨] و{وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: ٨١].

ولذلك كان غياب الحقّ في بلد أو بين أُمة هو سبب قيام دولة الباطل فيهم، ومجرّدُ مجيء الحقّ هو زُهُوقُ الباطل، ولا يتطلب دَحْرُ الباطل إلا هذا المجيء!

وهذه السنة الرّبانّية التي تبدأ بالصراع بين الحق والباطل، والتي تنتهي بأن مجرد حضور الحق الكامل بحججه وبراهينه هو زُهُوقُ الباطل واندحاره واختفاؤه سنةٌ جعلها الله تعالى دليلاً على الحق وعلامةً له،

لمن خَفِيَ عليه برهانُ الحقّ ودليله، وأراد أنّ يعرف الحق من الباطل بمآلات الأمور.

وهذا هو ما نشاهده اليوم بأم أعيننا، أنّ انتشار الإسلام هو بقدر عَرْضه والدعوة إليه. وأنه ما حَضَرتْ صورةُ الإسلام بصفائها إلا استطاعت أن تملك القلوب وتملأ العيون، فلا يستطيع من شاهدها إلا بأن يقف أمامها مبهوراً مشدوهاً بذلك الجمال والكمال والعظمة؛ فإما أن تَتّقد الفطرةُ فيه فيدخل في دين الله تعالى، أو أن تغلبه الأهواء فينكص على عقبيه، ليزداد قلبه ظلاما بهذا العناد، وتنقبض نفسه ضيقاً على ضيق، وتضل نداءات فطرته في مهالك ظُلْمِهِ لنفسه، لتكون ألماً على ألم وحسرةً على حسرة: {وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام: ١١٠].

ولذلك كان هذا الانتصار لدين الإسلام، هو انتصارُ انتشارِهِ بمجرّد حضوره والدعوة إليه - دليلاً من أدلة نبوة نبينا ﷺ؛ لأنّ علامة الحقّ الظاهرةَ قد تحقّقت في دين الإسلام الذي بُعث به نبينا ﷺ!! فكان هذا دليلاً على أن إلهنا حق ونبينا حق وديننا حق: {وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ} [الحج: ٧].

لكن ظهور تلك العلامات وبروزَ ذلك الدليل على النبوّة يستوجب القيام بواجب الحقّ الذي تحمّلناه، وهو الدعوة إليه، والدفاع عنه أمام من يحاول صدّ الناس عنه بتشويهه، أو يحاول تدنيسه لكي يستدل على بطلانه بذلّ أتباعه وانخذال حملته.

ويتضح من ذلك أن التطاول على المقدّسات له غرضان كبيران، هما من أهم المقاصد عند المتطاولين:

الأول: تحريف حقائق الحق، لتكون باطلاً في نظر الجاهلين به، فلا يجد الجاهلون فيه مُرادهم ومقصودهم الذي يسعون إليه، وهو الحق الذي تتعّطش النفوس إليه، فينفرون منه. وتَطَاوُلُ أصحاب هذا الغرض سمتُهم فيه الشُبْهَةُ، ومحاولة الاستدلال (ولو بالمغالطات) على تطاولهم هذا.

الثاني: الانتقاصُ والإهانة لحقائق الحق، الذي يتلبَّسُ التَّشَفي فيه بصورة الاحتقار والترفّع والتعالي على ذلك المقدَّس عند غيرهم، ليكون هذا دليلا عند أنفسهم وعند من يجهل الحق أنه ليس حقاً، لأن الحق مرتكز في النفوس أنه عزيز وعالٍ، وأن أصحابه وحملته أعِزّةٌ به، فإذا ما احتقره أحدٌ واستخف به، تصور الجاهلون بالحق أنه لا يمكن أن يكون حقاً، وإلا لما تطاول عليه ذلك المُتَطاوِل الذي قد يكون مُعظَّماً عند قومه وبني جنسه. وتطاول أصحاب هذا الغرض سمتُهم الإسفاف في التطاول، والإقذاع في أسلوب التناول: بالسبّ والشتم والأعمال الدالة على شدة الاحتقار وتمام الاستخفاف.

وقد ظهر هذان الغرضان في الأزمات المسيئة السابقة، فيأتي تطاول بابا الفاتيكان لتحقيق الغرض الأول، وتأتي الرسوم الدانمركية محققةً للغرض الثاني.

فهبّت الأمةُ غضباً لدينها ولنّبيها ﷺ، فاندلعت المظاهرات والاحتجاجات، وعمّت كل بقاع المسلمين، سواءً في الدول الإسلامية أو الدول التي فيها تجمّعات إسلامية.

لقد كان حدثاً هائلاً اندهش له الإسلاميّون والمصلحون، قبل أن يندهش له الآخرون. بل لقد صرَّح العديد من القادة الغربيين أنهم ما كانوا يظنّون أن شيئاً من هذا سيحصل!ولا نستغرب أن يقول الغربيون ذلك؛ لأننا نحن قبلهم ما كنّا نظن أن كل هذا سيحصل!!!

نعم.. لقد استطعنا أن نجعل العالم الغربي المتغطرس، الذي كان لا يرضى أن يستمع إلينا، فضلاً عن أن يفهمنا: أن نجعله منصتاً لنا!فقد أجبرناه على ذلك، وأن يلتفت إلينا، ليقول في اندهاش: «مازال للمقدَّس الديني شأن عظيم عند طائفة من البشر على وجه الأرض!! مازال المسلمون يعظمون دينهم؟!!».

ولذلك قد كان ذلك الحَدَثُ الهائل، بكل ما فيه من أحزان، ومن شعور بالنشوة للعزّة الدّينية التي فاضت بها الأمة - حدثاً لا يجوز أن يمر بغير وقفات تأمل معه: نستلهم منه الدروس، ونستفيد من تفاصيل أحداثه ومراحلها ما نسدّدُ به خطانا المستقبليّة فيما إذا احْتَجْنا إلى مثلها.

ولن يتم ما ننشده أيضاً من استلهامٍ للدروس إلا إذا عرفنا إخفاقاتنا وعثراتنا وأخطاءنا لكي نحرص على تجاوزها مستقبلاً.

ولا يخفى على أحد أن عَدَّ المرء لمحاسنه ليس كعدّه لمساوئه، وأنه أقدر

على رؤية الفضائل أكثر من رؤيته للرذائل، إلى درجة أنه لا يحتاج إلى غيره لرؤية الفضائل، في حين أنه ما أحوجه إلى غيره لرؤية العيوب، فالمِرآةُ لا يحتاجها غالباً إلا لاكتشاف العيب والنقص ليحسنه ويكمّله.

ولئن كان عوامّ الناس بحاجة إلى رفع المعنويّات بذكر المحاسن والبداء بها؛ فإنّنا معشر القائمين على الإصلاح نحتاج من حين لآخر إلى لحظات مصارحة ومكاشفة، نعتني فيها بإدراك العيوب لسَدّ الخلل.

ولذلك عُنِيْتُ في هذه الأوراق أن أُبرز بعض أهمّ نقاط الخلل التي انتابت عَمَلَنا الإسلامي في هذا الحدث، وأن أحاول أن أبين جوانب قصور أدائنا فيه مع تضمين ذلك ذكر بعض أهمّ المقترحات لسدّ الخلل وتكميل النقص.

واسمحوا لي أن أكون صوتَ المعارضة، ونبرة النقد، لكن لا لمجرّد المعارضة ولا حبّاً للنقد.. للنقد فقط، بل من أجل الإصلاح. وليس عدم ذكري للنجاحات استخفافاً بها أو لقلتها، ولا لعدم روئيتي لها؛ ولكن لأن الوقت قصير (هذا أولاً)، (ثانياً): لأن ورقة بحثي خصّصتها للإخفاقات، ليس إلا. وإلا فإن النجاحات كثيرةٌ ومباركة، والإنجازات عظيمةٌ نفخر بها، ومن هذه الإنجازات والنجاحات هذه الندوة المباركة.

أسأل الله تعالى الإعانة والتوفيق.

والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وجوه القصور في موقف الأمّة
في دفاعها عن مقدّساتها

كما قدّمت به في هذه الأوراق، أن الْتِفَاتي سيكونُ لوجوه القصور التي بدت لي من معايشتي لموقف أمَّتنا الإسلامية من تحدّيات الإساءة إلى المقدّسات، وأن اهتمامي سينصرف إلى ذكر بعض الإخفاقات التي ينبغي علينا السعي إلى دراسة أسبابها، لمحاولة تجاوزها في مستقبل أمتنا، ولكي نُوجِد الوسائل الصحيحة لتكون نجاحاتٍ بلا إخفاقاتٍ قدر المستطاع.

الوجه الأول: شيوع التصوّرات الخاطئة عن أسباب هذه الإساءات، وظهور التفسيرات القاصرة أو البعيدة عن الصواب في تحديد دواعيها:

وخطورة هذا الوجه من وجوه القصور يظهر من جهة أن مواجهة المشكلة بالطريقة المؤدّية إلى حلّها إنما تبدأ من معرفة أسبابها، فإذا ما فُسِّرت دواعيها بالتفسير المجانب للصواب، أدى ذلك إلى عدم القدرة على مواجهتها المواجهة الصحيحة الكفيلة بحلّها. فمعرفة الداء سبيلُ تحديد الدواء، كما أن معرفة أسباب الداء سبيل معرفة طُرُق الوقاية منه.

ولهذا الوجه صورٌ متعددّة:

الأولى: استمرار سيطرة فكرة المؤامرة على تصوّراتنا، ومحاولة ربط الحوادث بخيوط ضعيفة، وإغفال أن العالم بعد الحادي عشر من سبتمبر وما تلاه من أحداث، قد زاد احتكاكه بالإسلام والمسلمين، ومن الطبيعي في هذا الوقت المتأزِّم أن تتعدد فيه أنواع المواجهة، وأن يكون

منها المنظّم وغير المنظّم. ولا أريد بذلك إلغاء فكرة المؤامرة، لكني ضد عقدة المؤامرة، التي تبالغ في هذا الوجه من وجوه التفسير، وتجعل وسائل المواجهة كلّها مبنّيةً عليها. أما أن نضع هذا في الحسبان، وأن تكون المؤامرة إحدى المسبّبات لبعض تلك الاعتداءات، بحسب الأدلة الدالة على ذلك فهذا مطلوب؛ لأنه الحق الذي لا يخالف فيه من استبانت له أدلّته.

الثانية: حصر سبب تلك الاعتداءات في سبب واحد، مع أن أسبابه متعدّدة، أو التركيز على أسباب بصورة تؤدي إلى إغفال أسباب أخرى.

فمثلاً سمعنا وقرأنا من عَدَّ السبب في ذلك هو أن العالم النصراني والغربي بالتحديد، يعادي أهل الإسلام مع علمهم بصحّته، عناداً وإصراراً على الباطل. وهذا وإن كان حقاً في قلّة من الباحثين الغربيين، فإننا نعلم يقيناً أنه لا ينطبق على الكثرة الكاثرة والأعمّ الأغلب من الغربيين، الذين يجهلون دينهم (قبل غيره) جهلاً شديداً. فضلاً عن أن يكونوا قد عرفوا نبوة النبي ﷺ وجحدوها عن علم وعناد على البطل.

وخطورة هذا التصورّ أو المبالغة في تعميمه فوق واقعه الضيق الوجود جداً أنه سيحول بيننا وبين أهمّ وسيلة للدفاع عن النبي ﷺ، وهي التعريف به على الوجه الصحيح؛ لأن من كان يعرف النبي ﷺولم يمنعه من الإيمان به إلا الاستكبار، ما فائدة محاولة تعريفه بالنبي ﷺ؟

إن محاولة حصر أسباب تلك الاعتداءات في سبب واحد، أو تضخيم

سبب فوق حجمه الذي هو عليه، سيؤدّي إلى نتائج غير صحيحة. ولن يساعد على المواجهة الصحيحة.

ولا بأس بذكر بعض الأسباب الكبرى لهذه الاعتداءات:

الأول: العداء الأزلي بين الحق والباطل والإسلام والكفر، والذي لا يلزم لوقوعه أن يكون صادراً ممن عرفوا أنهم على الباطل والكفر فأصرّوا عليه، بل يصدر عداء أصحاب الباطل للحق مع ظن أصحاب الباطل أنهم على الحق، وهذا هو الغالب، ويصدر من أصحاب العناد العالمين بالحق التاركين له بُغضاً وكبراً وعناداً.

إن الصراع لمتوقَّعٌ بسبب اختلاف المبادئ والأديان، فهو صراع أساسه عقيدة الولاء والبراء الراسخة في قلب أصحاب كل دين ثابتين عليه.

الثاني: الجهل بالإسلام رسولا وتعاليم، والذي كُنّا نحن سبباً من أسبابه بتقصيرنا في الدعوة إلى الله تعالى.

الثالث: انتشار صورة قاتمة ظالمة للإسلام والمسلمين في العقليّة الغربيّة، كان للغربيين دورٌ كبير فيها، من خلال حركات الاستشراق (القديمة والحديثة) التي أصدرت دراسات جائرة وبثّت تصوّرات كاذبة عن الإسلام والمسلمين، ومن خلال وسائل الإعلام المسيئة في الغرب، والتي يقع كثيرٌ منها تحت سيطرة جهات صهيونية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ومن خلال أوضاع بعض المسلمين الذين أعانوا على الإساءة إلى الإسلام أيضا، وأكدوا التصورات الظالمة عن الإسلام، بأفعالهم

المخالفة له المنسوبة إليه بغير حق، ومن خلال التخلف الحضاري الـذي تعيشه كثير من الدول والمجتمعات الإسلاميّة، كـل هـذا وغـيره أدى إلى سوء التّصور لدى غير المسلمين عن الإسلام وأمة الإسلام.

الرابع: اختلاف القِيَم بيننا وبينهم، فالغرب ليس لدى عموم شـعوبه مقدّس ديني؛ في حين أنهـم يقدسـون قيمـة الحريّـة الفوضـوية، ولـذلك قدموها على المقدس الديني. ويجب علينا فهم هذا الأمر جيداً إذا أردنـا التفاهم مع الغرب، لكي لا يكون نقاشنا معهم مثل نقاش الصُّمّ، فنحن نتكلّم بكـلام لا يفهمونـه، وهـم يتكلمـون بمـا لا نفهمـه؛ لأنّ منطلـق النقاش (وهو القيم) مختلفٌ بيننا تماماً.

وهذا نقصٌ في الخطاب الإسلامي ظهر في أزمة الرسـوم الدانمركيّـة، ولا بد من معالجته، وإلا فلن نستطيع مخاطبـة عقلائهـم، ولـن نـستطيع إقناعهم باستصدار قـوانين تجـزم الإسـاءة إلى مقدسـات المـسلمين. إذن مادمنا مضطرين إلى خطابهم وجعلهم هـم مـن يمنـع تلـك الإسـاءات، فلابد من أن نفهمهم تماماً، ولا نصادم قيمهم من أجل قيمنا.

وفي هذا الـسياق أودّ مـن عمـوم المـسلمين مـن أهـل الفكـر ورجـال القانون، أن يطّلعوا على ردّ المدّعي العام الدانمركي على محـامي اللجنـة العالميـة لنصـرة خـاتم الأنبـياء ﷺ في رفـضه لقبـول الـدعوى المقدّمـة ضد الصحيفة الدانمركية، وهو منشور في موقع اللجنة بـاللغتين العربيـة والإنجليزية؛ لكي يكون خطوةً أولى لفهم القوم وطريقة تناولهم لقـيمهم وقيم غيرهم.

الصورة الثالثة لنقص التصور: اعتقاد أنّ ما حدث في الدانمرك شيءٌ جديد، وأن الدانمرك هي أوّل من أساء بالتعدي على مقام النبي ﷺ. وهذا التصوّر في غاية البُعْد عن الصواب، ولذلك فهو في غاية الغرابة. فإن الإساءة إلى النبي ﷺ بدأت من يوم أن بُعِث ﷺ، كما هو معلوم، ولم تنقطع من حينها إلى اليوم. وبعد انفتاح العالم على بعضه من خلال وسائل الاتصال الإعلاميّة وغيرها، أصبحت تلك الإساءات عالميّة بسبب هذا الحدث الحضاري الهائل، الذي جعل العالم بحق أصغر من القرية الواحدة.

وقد سبق الدانمرك إلى الإساءة بعد الحادي عشر من سبتمبر تصريحاتٌ مشينة ومسيئة لبعض المسؤلين في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها، كانت تلك التصريحات هي الدافع لإنشاء اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء ﷺ. والخلل الذي أدّى إليه هذا التصور الخاطئ: تخصيص الدانمرك وحدها ببعض جهودنا في استنكار الاعتداءات، وعدم وضعها ضمن صفّ المعتدين جميعهم. وهذا لن يحّقق الانتصار الذي نرجوه للنبي ﷺ؛ لأننا أغفلنا جميع المعتدين بحجة أن الدانمرك هي أول معتدٍ؛ فلا ذلك الإغفال صحيحٌ لو كانت الدانمرك فعلاً هي أول معتدٍ؛ ولا كانت هي أوّل معتدٍ أصلاً؛ ولذلك فهذا تَصَرُّفٌ مُجانِبٌ للصواب بمقدّمتيه كلتيهما!

الوجه الثاني: عدم وضوح الهدف أو عدم وجوده أصلاً من تلك الاحتجاجات، سواءً أكانت مظاهرات أو مقاطعة أو غير ذلك. فقد كانت تلك الاحتجاجات في غالب الأحيان بلا هدف واضح؛ بل ربما كانت مجرّد تفريغ لشُحنة غضب وانطلاقاً من عاطفة غير موجّهة.

ولا شك أن الغضب لله تعالى ولرسوله ﷺ دليلٌ من أدلة الإيمان، كما أنّ العاطفة الدينية مطلوبة أيضاً؛ لكن الغضب إذا لم ينضبط ضرّ وما نفع، ولا يضبطه مجرّد كونه لله، بل لا بد من التزامه بأمر الله، وأن يكون له هدف يحقق أمر الله تعالى، وكذلك العاطفة الدينيّة، إذا لم يكن لها أهداف، كانت مجرّد مشاعر لا تنصر الدين الذي جاشت وتحركت لأجله!

وآثار هذا الخلل واضحة، فإن أي عمل لا تكون له أهدافٌ واضحة تماماً، لن يحقق شيئاً؛ وكيف يحقق هدفاً وهو لم يَسعَ إليه أصلاً؟! بل أنّى ينتظر تحقق الهدف من لم يضع له هدفاً؟!

أمّا إن قيل: قد تحققت كثيرٌ من الأهداف جرّاء تلك الاحتجاجات، فكيف يُدّعى أنها لم تكن ذات هدف؟! فأقول: قد تحقق بعض الأهداف دون قصد، كما أن من تلك الاحتجاجات ما كان مُهَدَّفاً بمحاولة بعض أهل العقل والعلم أن يجعلوا له هدفاً.

ولكن المهم: هل كانت تلك الأهداف التي تحققت مقصودة؟

والمهم الآخر: هل فوّتنا أهدافاً أخرى بسبب عدم تهديف تحرُّكاتنا؟

وهنا أود أن أضع قاعدةً لمحاسبة منجزاتنا الإسلامية:

الإنجازات غير المدروسة (مهما عَظُمَت) لا تستحق كل الإشادة؛ لأنها نتجت عن عمل بغير نيّةٍ وقصد، ولأنه وصول إلى الصواب لا بجهدنا بل بفضل الله تعالى، فالمحمود عليه هو الله وحده.أمّا الإنجاز المدروس (مهما صَغُر) فيستحق الإشادة؛ لأنه نتج عن عمل بنيّة وقصد، ووصولٌ للصواب بعد استفراغ الجهد في الوصول إليه، فالمحمود فيها الله وحده أيضاً ولكن لا يُشْكَرُ الله تعالى حينها إلا بشكر الناس. فالأول (وهو صاحب الإنجاز غير المدروس) وصل إلى الإنجاز بلا تكليف، بل بمحض الفضل الإلهي، والثاني (وهو صاحب الانجاز المدروس)وصل إليه وهو تحت طائلة التكليف والمحاسبة. فأيّهما أولى بالإشادة، وأيهما المستحق للثواب الأخروي والشكر له في الدنيا؟!

ولهذا الوجه من وجوه الإخفاقات صورٌ عديدة:

الصورة الأولى: أن تكون تلك الاحتجاجاتُ نتيجةَ فورةَ وغضبٍ فقط، ولا هدف لها البتّة. وحينها قد تخرج هذه الفورة عن حدودها، وقد تسيء إلى صورة المسلمين، كما وقع فعلاً. كما أن هذه الفورة سرعان ما تهدأ، ولا يمكن أن تُسْتَثمَر، ولا أن يكون لذلك الغضب طاقةً فاعلةً لما فيه تحقيق مصالح للأمة.

وكان ينبغي أن يُسارع الدعاة والعلماء والقادة إلى بيان أهداف تلك الاحتجاجات، وإلى استثمار تلك الغضبة في عمل جماعي وبذلٍ بالجُهد والمال، لما يحقق الهدف الذي ينشدونه.

الصورة الثانية: المطالبة بأهداف مستحيلة، أو مُستبعدة الوقوع، وربما كان من المضرّ مجرّد ذكرها وإعلانها.

فمن مُطالبٍ بقتل الرسّامين أو رئيس تحرير الصحيفة المسيئة، ولا يخفى ما في هذا الطلب من بُعد وإساءة جديدة لصورة المسلمين.

وآخر: جعل هَدَفَه ضمان عدم تكرار الإساءة، غافلاً عن أن الإساءة تحصل وستحصل مادام على وجه الأرض عدو للإسلام. ولذلك أصيب بعضهم بالفشل بسبب تكرار الإساءة؛ لأنه كان هدفه الذي بذل له أن لا تتكرر، فلما تكررت شعر بأنه أخفق في تحقيق الهدف. كما أن بعضهم جعل تكرار الإساءة بسبب تقصير في وجهة نظره في موقفٍ لبعض علماء المسلمين، وأن تكرار الإساءة ما كان سيحصل لولا اجتهاد أولئك العلماء الذي يراه خاطئاً، وأصبح أكبر دليل على خطأ أولئك العلماء عنده تكرار الإساءة؛ فكأنّ رأيه الذي كان يراه هو.. من الممكن أن يمنع تكرار الإساءة.

وثالث: جعل هدفه أن تركع الحكومة الدانمركية للمسلمين، وتلبّي مطالبهم، تلك المطالب التي لم تتحدّد بعد، فَمِنْ مطالب بقتل الرسّام، أو بالتعهّد بعدم تكرار الإساءة، أو بالاعتذار الذي يختلفون في صيغته المقبولة.

ولا تدري هل فهم هؤلاء قَدْر ما قدّموه في النصرة، وهل هو على قدر هذا الهدف؟ أم لا يهُمّ أن يفهموا؟! فالمهم فقط أن يحلموا بأهداف ولا يكونوا قادرين على تحقيقها!!! إن تركيع حكومة (لفظاً ومضموناً)

وإذلالها بالطريقة التي يحلم بها هؤلاء يحتاج هزيمةً عسكريةً ساحقة، وهم يريدون تحقيق هذه الهزيمة بالمظاهرات ومقاطعة بعض الشركات!!!

الصورة الثالثة: استعجال الوصول إلى الهدف، بغير علم بالطريق الموصل إليه، وهل هو مما يحتمل هذا الاستعجال أو لا يحتمله. وسبب هذا الاستعجال هو بسبب عدم وضوح معالم الهدف وبالطرق الموصلة إليه، وإلا لو كان واضحاً لعرفنا ما الذي يحتاجه من الجهد والبذل والوقت أيضاً.

مثاله: لّما سعى البعض إلى استصدار أحكام قضائيّة ضد الحكومة أو ضدّ الصحيفة، رأينا من لم يقف به الأمر عند حدّ الاستعجال بسبب تأخر حصول هذا الهدف، بل وصل به الأمر إلى درجة أنه يائس من الوصول إلى هذا الهدف، ولو بعد حين، حتى أصبح يستهجن الحرص في الوصول إليه، وربما شمت! بمن حاول ثم أخفق، كما وقع هذا فعلاً.

كما أننا وجدنا من لا يرى السعي إلى استصدار قانون يجرِّم المساس بالمقدسات الإسلامية ة والإساءة إليها ، بسبب أن المطالبات القريبة بها لم تحقق نجاحاً. فاستعجاله قطف الثمرة جعله يترك السعي إلى قطفها في أوانها، ولو بعد حين.

وينسى هؤلاء أن اليهود أصحاب النفوذ والسيطرة العالميّة لم يحصلوا على قانون معاداة السامية إلا بعد عشرات السنين، كما أنهم نسوا أيضاً أن السعي إليه (ولو لم يؤت ثمرته المقصودة) إلا أنه سيؤدي إلى ثمار

أخرى هي ثمار المظاهرات والمقاطعة من الدلالة على الاستنكار والإدانة.

الصورة الرابعة: ضآلة الهدف مع احتمال أن يكون أعظم وأجلّ.

وأعظم هدف هو التعريف بالإسلام وبنبي الإسلام ﷺ، ونشر دعوة الإسلام التي طالما تراخى دونها بل أهملها المسلمون؛ فلماذا لا يكون ما وقع دافعاً لتحقيق هذا الهدف العظيم، وهو أعظم وجه من وجوه النصرة، وهو الغاية الكبرى من بعثته ﷺ.

فالاكتفاء بمجرّد الاعتذار، أو حتى معاقبة المسيء، ليس هو هدفنا الأسمى.

إن هدفنا الأسمى هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فلا يصح أن نُفوِّت فرصة هذه اليقظة الإسلامية دون تذكير المسلمين بواجبهم الذي غفلوا عنه حتى نسوه، بل كان الواجب بيان أن هذا هو ما يجب أن ينصروا به النبي ﷺ. وهو أوجب ما يجب عليهم تجاه أتباع غير ملة الإسلام، وما شُرع الجهاد بالنفس والمال إلا لأجلها!

أين الأمة (أمة الثراء المادّي والعقول المبتكرة وأمة التحضّر) من إنتاج إعلامي عالمي، على أرقى المستويات العالمية جاذبيةً وإثارةً، ودقةَ معلومة، للتعريف بالنبي ﷺ؟!

الوجه الثالث: ضعف الجهود في تحقيق الأهداف المطروحة، سواءً رضيناها أهدافاً أو لم نرضاها، ومع ذلك لم تكن الجهود بالمستوى الذي كان ينبغي أن تكون عليه.

ولهذا الوجه صُوَرٌ وأسباب:

وأوّلها: تشتُّتُ الجهود وتبعثرها، وقلّة التنسيق. فكم من لجنةٍ أنشئت بعد حادث الدانمرك؟ ولا إشكال في الإنشاء، لكن الإشكال في إنشاء بغير استفادةٍ من الجهود السابقة غالباً، وكأن القضية في أحيان ليست بالنادرة منافسةٌ على شرف دنيوي ومنصبٍ يُتَزاحَمُ عليه.

ولا شك أن تقسيم الأدوار مطلوب، وأن التعاون على الهدف الكبير من جهات عدّة محمود. لكن غير المطلوب والمحمود أن يكون الغرضُ الحلولَ محلّ جهة أخرى أو إسقاط لجنة قائمة لمجرّد أن القيادة أو العضويّة فيها لا تُحسَب على تلك الجهة التي أنتمي إليها!

وهنا يبدو الألم عميقاً: عندما تتوحد الشعوب، ويعجزُ بعض إصلاحييِّها من أن يتحدوا، وما زالوا لا يستطيعون الانفكاك من ضيق أفق الجماعة أو الحزب أو القيادة أو الآراء الفكرية التي يتبنونها!!

وثانيها: بقاء كثير من جهودنا في حدود ردود الأفعال، لا بناءً على الدراسة المتعمّقة التي تستشرف المستقبل: للتوقّع، ووضع الحلول المناسبة، ولسبل الوقاية من الوقوع في المشكلة.

فمثلاً: هل أقمنا دراسات عن المقاطعة من جهة أنواعها (الحكومية

والشعبية) وجدواها الاقتصادية، هل أقمنا مكاتب لتقويم مقاطعات أي دولة في العالم: هل يمكن أن تُقَاطَعَ عند الحاجة إلى إجراء موقف ضدها؟ وهل تُقاطع كُلّيّاً أم جزئياً؟ وما الغرض من المقاطعة؟ هل هو الإنهاك والإخلال الاقتصادي؟ أم الإثارة الإعلامية للفت النظر عالميّاً إلى قضيتنا؟

ومثلٌ آخر: هل أقمنا دراسات لمعرفة الخلفيّات العلميّة والثقافيّة والتاريخيّة والحضاريّة والدينيّة لتلك الإساءات، باختلاف جهات صدورها، بكل دقّة، لنعرف كيفية مواجهة كل إساءة بما يناسبها، بناءً على العلم بدوافعها المختلفة ولاشك.

إلى غير ذلك من الدراسات، والخطط الوقائية، بدلاً من أن لا تكون جهودنا إلا ردود أفعال. ولا يخفى أن ردود الأفعال ليست في قوة المواقف المدروسة المبنيّة على نظرة مستقبلية.

ثالثها: تأخُّر ردود الأفعال من دون سبب مقنع.

فمثلاً الهجوم على النبي ﷺ بدأ بقوة بعد الحادي عشر من سبتمبر عام (٢٠٠١م)، وعلى أعلى المستويات من بعض رجال الحكومة الأمريكية وغيرهم، وما أقل التحرّكات وردود الأفعال حينها؛ حتى إذا ما وقعت إساءة الصحيفة الدانمركية هب الناس هبتهم المحمودة تلك. لكن لماذا تأخّرت تلك الهبّة؟!

لا ينبغي أن تكون ردود أفعالنا (وهي مجرّد ردود أفعال) بهذا البُطء، بل لا بد من المبادرة المدروسة ذات الهدف الواضح.

رابعها: السماح لأصحاب الأغراض الشخصيّة والأرباح الدنيوية باستغلال الحدث لصالحهم الدنيء، أو لأصحاب النوايا الحسنة دون عقل أو عدل من ممارسة الدور الذي لا يكادون يحسنون غيره، وهو المزايدة على الغيرة الدينيّة والمسابقة غير المنضبطة إلى دعاوى الحميّة الشرعيّة.

فكم من شركة ادُّعِيَ أنها دانمركية وهي ليست كذلك، وخرجت تلك الادعاءات من شركات منافسة أو من أشخاص بغير تبيُّن!

وكم من شركات نُسبت إليها اعتداءات ولم يصح ذلك عنها!

وكم من أقوال نُسبت لأشخاص وكانت نسبتها خطأ، أو فهمت خطأ!

وكم ادعى أناس من التجار وغيرهم دعماً أو تبرعاً أو وقوفاً مع المقاطعة، وقد لا يكون ذلك كله واقعاً، بل هي مجرّد وسيلة كاذبة رخيصة للدعاية والإعلان.

وكم من شائعة عن رسام أصابته قارعة، أو إهانات أو إساءات تُنشر عبر رسائل الجوال وغيرها، وهي كذب محضٌ، بحجج ومقاصدَ عديدةٍ، الله أعلم بقصد أصحابها وبأغراضهم.يكفي أنها كذبٌ بَحْتٌ، لا يمتّ إلى الواقع بأي صِلة؟

خامسها: قصورٌ في الوسائل المتّبعة في تحقيق الأهداف التي وضعناها خلال الأزمة السابقة.

ونبدأ بالحكومات: فمع ما يُذكر ويشكر لكثير من الحكومات الإسلامية، حيث سبقت الشعوب إلى معالجة الأزمة، وكان لبعض

الحكومات مواقف أكثر صرامة من بعض. لكن تفاوت المواقف قوةً وضعفاً، وضعف التنسيق بين هذه الدول الإسلامية، جعلت النتائج ليست بالمستوى المطلوب!

وكذلك أداء وسائل الإعلام والفضائيات الإسلامية: لم تكن بالمستوى المأمول في تغطية الحدث، ولا في تغطية مواقف الشعوب الإسلامية منه، ولا في إنتاج البرامج المصاحبة له.

ألا يكفي أن مؤتمراً مثل مؤتمر البحرين الذي ضمّ ما يزيد على ثلاثمائة عالم وداعية ومفكر من جميع العالم الإسلامي، لولا تغطية قناة الجزيرة له من خلال البَثِّ المباشر، لما وجد قناةً إسلاميةً تنقله بنحو تلك التغطية! حتى تلك القنوات الإسلامية الصِّرفةُ التي كنّا ننتظر منها الكثير!

وأما التجار ورجال الأعمال ومدراء الشركات: فمنهم من كانت له مواقف مشرفة ولا شك، ومنهم من لا هم له إلا الاصطياد في الماء العكر (كما قدمناه) من خلال الشائعات الكاذبة. ولم يقف قصور أداء أرباب الثروات عند هذا الحدّ، بل تعداه إلى أن بعضهم اقتصر دوره على مقاطعة ما قاطعته الشعوب أصلاً، أما ما لا علم للشعوب به ولا قُدْرَةَ لها على مقاطعته، كشركات الشحن مثلاً، فلم تدخل عنده ضمن ما يستحق المقاطعة بالبحث عن بديل، لتفعيل أثر المقاطعة. كما أن وقوف هذه الفئة في الغالب كان في جانب نصرة الامتناع عن الشراء (المقاطعة) دون نصرة البذل والعطاء لمشاريع النصرة العديدة، فقد يقاطع أحدهم؛

لوجود البديل أو لكسب سمعةٍ حسنةٍ أو لمقصدٍ طيّب، لكنه يشُح عن العطاء في الذب عن رسول الله ﷺ!

هذه أهم إخفاقات تجربتنا السابقة، والتي تقابلها نجاحات عظيمة، وانتصارات حقيقيّة لا تُنكر، لكن تخصُّص المقال في الإخفاقات هو الذي جعلني أقتصر عليها، بغرض دراستها من إخواني الحضور من أصحاب العمل في الساحة، فما وجوده إخفاقاً حقاً حاولوا تجاوزه في المستقبل، وما وجوده بخلاف ذلك عملوا على تحقيقه.

والله من وراء القصد.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين، والله أعلم.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الأمانة العامة للأوقاف

مجلة البيان

رد التطاول

على الصحابة الكرام رضي الله عنهم

د. عبد الستار فتح الله سعيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعتي الأزهر وأم القرى (سابقاً)

الإعمال الفنية
Associated Art Materials

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، واتبع هداه إلى يوم الدين (أما بعد):

فقد شرفنا الله - تعالى - بدينه الإسلام، وجعله خاتمة رسالاته للناس، وحمله رسول الله ﷺ هو وأصحابه الغر الميامين، عبر تضحيات جسام، وجهاد موصول مبرور.

وقد قام في وجوههم طواغيت الجاهلية طويلاً، ورموهم بكل نقيصة، ولكن الله - تعالى - أتم نوره، وأظهر دينه، واستخلف عباده المؤمنين في الأرض، فكانوا رحمة للعالمين، وأخرجوا الناس من عبادة العبيد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وصدق الله: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠].

ثم أدركت المسلمين غمرة من دنياهم، فعاد الضالون للتطاول على الإسلام، وإلى الطعن في الدين وأهله، وفي نبيه العظيم ﷺ، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم بإحسان، رضي الله عنهم أجمعين.

وهذا بحث موجز نتناول فيه هذه الظاهرة، والذين تولوا كبرها من خارج المسلمين عامة، ومن داخلهم خاصة، وقد ركزت على ظاهرة: (التطاول من الداخل)؛ لأنها أخطر أثراً، وأفحش ضرراً، والقصد الأول هو إبراز الأسباب، وبيان آثارها المدمرة على الدين والدنيا،

والفرد والمجتمع، توصلاً إلى ما نرجوه من إصلاح الأمور، وتبصير أهل الغرور، وعودة الشاردين إلى صراط الله المستقيم.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة، توخيت فيها الإيجاز قدر المستطاع، وأردت منها التنبيه إلى الحق، لا التنديد والسب، رجاء أن يفيء العقلاء إلى دين الله، وما نزل من الحق.

{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى عفو الله

عبد الستار فتح الله سعيد

تمهيد

خصائص الرسل عليهم السلام

اصطفى الله – تعالى – من الناس رسله الأكرمين، وزودهم بكل الخصائص والصفات التي تعينهم على الدعوة والبلاغ، ليقيموا في الأرض دينه الحق، ولتقوم بهم حجة الله على الخلق، وليقوم الناس بالقسط، كما قال – تعالى –:{لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ} [سورة الحديد: ٢٥].

وهذه الخصائص نوعان:

الأول: (الخصائص المشتركة) بين الرسل جميعاً عليهم السلام، مثل: الإيمان بالله واليوم الآخر، والصدق والأمانة، والتبليغ والفطانة والإبانة، وشرف الأنساب، وسلامة الحواس، ونحو ذلك مما يحتاجونه لرسالتهم: دعوة، وبلاغاً، وتطبيقاً وجهاداً.

الثاني: (الخصائص الذاتية)، التي ميّز الله – تعالى – بها كل رسول على حدة لتناسب زمنه، وقومه، والمرحلة التي بعث فيها مثل:

(أ) تناسب اللغات، قال – تعالى –: {وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ} [سورة إبراهيم: ٤].

(ب) تفاوت الأعمار ومدّة البلاغ: فنوح – عليه السلام – كان أول رسول يبعث للناس خارج ذريته، لذلك زوده الله – تعالى – بطول العمر، وامتداد

الدعوة، وسعة الإمهال الإلهي للمكذبين من قومه عبر أجيال كثيرة، قال – تعالى –: {وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ} [سورة العنكبوت: ١٤].

(ج) تعادل الأوصاف: إذ تختلف الأمم شدة ولياناً، وبداوة وحضارة، وقبائل ودولاً... إلخ. فكان كل رسول يبعث وفيه من الأوصاف الخاصة ما يعادل أحوال قومه، كموسى – عليه السلام – الذي زوده الله بصفات القوة، والحزم، والشدة في الحق، ليناسب دولة الفراعنة، ذات البأس الشديد، والسلطان الطاغي، والقوة العارمة الباطشة، قال – تعالى –: {وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ} [سورة يونس: ٨٣].

خصوصيات الرسول الخاتم ﷺ:

ولما بعث الله – تعالى – رسوله محمداً ﷺ، اختصه بعموم الرسالة، وختم النبوة، لذلك زوده بكل الخصائص والصفات اللازمة لذلك، وجمع له ما تفرق في إخوانه المرسلين – عليهم السلام – ليبْلُغ برسالته ما بلغ الليل والنهار، كما قال – تعالى –: {هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ} [سورة التوبة: ٣٣].

وهذا إجمال يحتاج إلى بيان فيما يلي:

الفصل الأول: الرسالة الخاتمة وحملتها

اقتضت حكمة الله – تعالى – أن تكون رسالة محمد ﷺ هي خاتمة الرسالات الإلهية لعباده، وحجة الله على الناس ما دام الرسول ﷺ فيهم، فكيف تقوم عليهم الحجة بهذه الرسالة بعد وفاته ﷺ؟

قال – تعالى –: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب: ٤٠) وختام الآية الكريمة هو مفتاح الجواب على هذا السؤال.

لأن الله – تعالى – الذي أحاط بكل شيء علماً زود هذه الرسالة بكل عوامل الحفظ، والبقاء، والنماء، والامتداد، والخلود، بما أودع فيها من جوانب الامتياز والإعجاز، الذي يضمن لها التفوق والتفرد على كل المذاهب، والأديان، والأفكار، التي ستقابل هذه الرسالة المباركة في رحلتها الممتدة مع الحياة إلى آخر الدنيا، طولاً مع آماد الزمن، وعرضاً مع سائر الأمم، وعمقاً مع شتى النظم، والثقافات والحضارات، وصدق الله في وعده الكريم: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ (سورة النور: ٥٥).

أركان الرسالة الخاتمة

ولذلك هيّأ الله – تعالى – كل الأسباب لتحقيق هذا الوعد الكريم، خاصة بالأركان الأربعة التالية:

الأول: الرسول الخاتم ﷺ:

بما فطره الله عليه من صدق وأمانة، وأخلاق عظيمة، وعبودية تامة لله رب العالمين، وجهاد صادق في سبيله، وإخلاص في الدعوة والبلاغ، لذلك كان آية عظمى في الأرض في حياته، ثم بعد مماته متمثلاً في سنته الشريفة.

الثاني: القرآن الكريم:

وهو كتاب الله المعجز بلفظه ونظمه، والمنزل على رسول الله ﷺ ليكون هداه وسبيله، ومعجزته ودليله، والمنقول إلينا بالتواتر عبر أصحابه – رضي الله عنهم – والتابعين لهم بإحسان.

الثالث: الدين الكامل الشامل، الذي شرعه الله لعباده على علم وحكمة، وقال فيه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ (سورة المائدة: ٣).

الرابع: الأمة المستخلفة: وهي الجماعة البشرية المخاطبة بهذا الدين، والمكلفة به تطبيقاً وبلاغاً، ودعوة للناس في كل العصور إلى يوم الدين. وهي بدورها تتألف من طبقات تتوالى عبر الزمان:

فالطبقة الأولى: هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وغيرهم ممن صحب النبي ﷺ حتى اكتمل القرن الأول وهو خير القرون.

والطبقة الثانية: هم التابعون لهم بإحسان ممن جاءوا بعدهم، حتى اكتمل القرن الثاني، وهو في الفضل يلي القرن الأول.

والطبقة الثالثة: الذين جاءوا من بعدهم.

وفيهم يقول ﷺ: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...» رواه البخاري ومسلم من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما.

ويقول عز وجل: {وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ} [سورة التوبة: ١٠٠].

وهؤلاء هم الذين مكنوا للإسلام في أرض الله، وحملوه إلى الناس في كل مكان استطاعوا الوصول إليه، حتى ذاع وشاع، واستقر استقرار الأبد بإذن الله.

الطبقة الرابعة: أمة الإجابة جيلاً بعد جيل، ويتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح، وهم مثل صدر الأمة مكلفون بالتطبيق، والبلاغ.

ضرورة الأمة المستخلفة في الأرض:

وهكذا يتبين أن الأمة الإسلامية بداية وامتداداً هي ضرورة أساسية لدين الله عز وجل، وليست مجرد أمة عابرة في التاريخ، لتؤدي مهمة محدودة ثم تسقط كأوراق الخريف الذابلة، كما سقطت قبلها أمم وشعوب، وحضارات ودول!!

ولكن الصحيح أنها امتداد موصول حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأن الله – تعالى – أخرجها إخراجاً، واستخلفها لأمر خطير، هو أن تكون امتداداً أميناً لصوت النبوة الخاتمة بعد وفاة الرسول الخاتم ﷺ، كما كانت في حياته، ولتحمل للناس رسالات الله الشاملة الكاملة، ولتقوم الحجة بها على الناس بعد ختم النبوات، ولذلك كرمها الله – تعالى – وشرفها، وكلفها، وناط بأعناقها مهمة الدعوة والبلاغ، والجهاد الموصول إلى آخر الدهر، حتى يقاتل آخرها الدجال وأتباعه، كما قاتل أولها المشركين وأهل الأوثان.

الفصل الثاني: الصحابة خير الأمة المستخلفة

الصحابي بالمعنى العام: «كل مسلم رأى النبي ﷺ ولو لحظة، ومات على الإسلام»[1]. وهذا مذهب المحدثين عامة، وكثير من العلماء.

والصحابي بالمعنى الخاص: من طالت صحبته للنبي ﷺ، واختص به اختصاص الصاحب بالمصحوب.

ومن العلماء من يشترط لذلك شروطاً مثل: طول المجالسة للنبي ﷺ، أو يكون قد روى عنه وحفظت روايته، أو غزا معه، أو استشهد بين يديه ﷺ[2].

بل كان سعيد بن المسيب - إمام التابعين- لا يعد الصحابي إلا من أقام مع النبي ﷺ سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين[3].

ويجمع بين القولين: بأن القول الأول هو لبيان أصل الصحبة. والقول الثاني هو لبيان درجة الصحبة.

ولا شك أن الصحابة - رضوان الله عليهم - لهم شرف الصحبة وفضلها بالرؤية والإسلام، ولكنهم يتفاوتون في درجاتها تفاوتاً كبيراً جداً، بين السابقين الأولين إلى الإسلام كأبي بكر، وخديجة، وعلي، وزيد بن حارثة، ثم من هاجر الهجرتين، ثم من شهد بدراً من المهاجرين

---

(1) شرح صحيح مسلم للإمام النووي، جـ١، ص٤١.

(2) الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ بن حجر، ص٢٩٦.

(3) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث مع شرحها، ص٢٩٧.

والأنصار، ثم من أنفق قبل فتح مكة وجاهد، على تفصيل واسع النطاق في بيان طبقات الصحابة - رضي الله عنهم - قال - تعالى -: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (سورة الحديد: ١٠).

للصحابة الصدارة وفضل السبق:

ومن ذلك يتبين فضل الصحابة - رضي الله عنهم - على غيرهم من طبقات الأمة التي جاءت بعدهم، وأنهم رأس الأمة جميعاً، وعمادها، وأساسها، فقد سبقوا إلى الإسلام ابتداء، وأخذوا من النبي ﷺ، وجاهدوا في الله جهاداً طويلاً، وحملوا علوم الإسلام والقرآن، ونقلوها لمن بعدهم في صدق وأمانة.

يقول الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله -: «إن أعداداً كبيرة من أصحاب محمد ﷺ ذهبوا شهداء في معارك الجهاد ضد الوثنيين والكتابيين».

والدارس المحايد يرى آثار النبوة في شمائل أولئك الرجال الشجعان... لقد أُشربوا منه حب الله – تعالى - وطلب رضاه، والتمهيد للقائه، والشوق إلى جنته، فأقدرتهم هذه العواطف الجياشة على تهديم أسوار الباطل وكانت عالية، وتلاشت إمبراطوريات استعصت على الفناء قروناً متطاولة.

وتميز أصحاب محمد ﷺ (بأمرين) لم يُعرفا في تاريخ النبوات الأولى: لقد نقلوا الوحي السماوي كله فما سقط منه حرف، ونقلوا السنة

النبوية كذلك، وربوا من الأتباع من عمل عملهم، فإذا الإسلام يبقى في أصوله النظرية مصوناً من كل شائبة.

وظل هذا التواتر للقرآن كلمة كلمة، وللسنة في الجملة، فتوفرت للرسالة الخاتمة عناصر الخلود، وظلت، وسوف تظل، كلمة الله الأخيرة للخلائق أجمعين حتى انتهاء الدنيا.

أما الأمر الآخر فإن الصحابة - رضي الله عنهم - هم الذين جعلوا عالمية الرسالة حقيقة واقعة، فإن النبي - عليه الصلاة والسلام - لحق بالرفيق الأعلى ودينه لم يتجاوز حدود جزيرة العرب، وقد علم الأصحاب الكرام أنه مبعوث للعالم كله، فشرعوا ينساحون في الأرض مبشرين ومنذرين.

ولم يكن الطريق سهلاً، فإن رعاع العرب داخل الجزيرة العربية حاولوا إعادة الليل المدبر، وإحياء الجاهلية المسحوقة، كما أن مجوس فارس، وصليبي الرومان اعترضوا بالعنف مسار الدعوة.

غير أن الجيل الذي رباه محمد ﷺ كان صلب المعدن، شديد البأس، جمع بين الصرامة والكرامة.. ولم يضرع أمام قوى الباطل، إنه نازلها كلها حتى كسر شوكتها، وأسقط دولتها. إن تربية محمد ﷺ لهذا الجيل معجزته الكبرى بعد القرآن الكريم..»[1].

(1) علل وأدوية للشيخ محمد الغزالي، ص١٢٧ - ١٢٨، دار الدعوة بالإسكندرية بتاريخ ذي الحجة ١٤١١ هـ، ١٩٩١م.

شهادة الله - تعالى - للصحابة:

لقد استفاضت شهادة الله - تعالى - في كتابه الكريم، المحفوظ المتواتر، لهؤلاء الصحابة الكرام بالخير، والتزكية، والمدح، والحكم لهم بما لا يعلمه إلا هو من الإخلاص، والعدالة، ولذلك أمر أمراً صريحاً بمحبتهم وإكرامهم، ونهى نهياً جازماً عن إهانتهم وسبهم، أو الطعن فيهم، وانتقاصهم. ومن ذلك على سبيل الإيجاز:

أولاً: امتنان الله - تعالى - على الأمة جميعاً بصنعه لها، وإخراجه إياها، واختياره لأفرادها على أرقى ضروب الكمال البشري، والخير الإنساني، قال تعالى:

• {وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا} [البقرة: ١٤٣]. ومعنى (وسطاً) أي: خياراً عدولاً.

• وقال - تعالى -: {كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ} [آل عمران: ١١٠]. وهذا خبر صريح بأن هذه الأمة خير الأمم وكفى بالله شهيداً.

• وقال - تعالى -: {وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ} [الحج: ٧٨]. والاجتباء هو الاختيار والاصطفاء من الله - تعالى - لهذه الأمة، بمحض فضله، وقبل أن تعمل عملاً ما تستحق عليه هذه النعمة، وقد فعلت بعد ذلك الكثير الطيب من البذل والجهاد.

ويلاحظ في الآيات الكريمة:

١- إسناد الفعل فيها جميعاً إلى الله - تعالى - أعني: (جعل، وأخرج، واجتبى)، وهذا غاية التشريف والتكريم للأمة، وهو أتم شهادة لها من الله الذي ساق الكلام مساق الامتنان بنعمه العظمى، فضلاً عمّا في الآيات من ذكر الوسطية، والخيرية، والاجتباء؛ وكلها ألفاظ مدح.

٢- جعل الله - تعالى - هذا التشريف مدخلاً للتكليف، بالشهادة على الناس في الآية الأولى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الآية الثانية، والجهاد في سبيل الله في الثالثة، وقد قام الصحابة بذلك.

٣- الآيات الثلاث تزكية للأمة المستخلفة جميعاً، ويدخل فيها (الصحابة) دخولاً أولياً لأنهم أوْلى الأجيال والطبقات بهذا الفضل. أو هي خطاب مباشر للصحابة ابتداء، ويدخل في الخطاب الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، لاشتراكهم ــ حينئذٍ ــ في العمل والجهاد، والمماثلة في العبودية والانقياد.

ثانياً: اختصاص الصحابة - رضي الله عنهم - بنصوص قرآنية مباشرة، في مناسبات شتى، وبأساليب متنوعة مدحاً، وتزكية، وتفضيلاً، ومن ذلك:

١- قال - تعالى -: {وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}. [الأنفال: ٧٤] والآية الكريمة تسجيل لأنبل أعمالهم من: الإيمان، والهجرة،

والجهاد في سبيل الله، وإيواء المؤمنين ونصرة الرسول ﷺ، ثم هي حكم صريح لهم من الله – تعالى – بصدق إيمانهم، وحقيقته المطلقة. ثم هي وعد رباني جليل لهم بالمغفرة والرزق الكريم، والآية الكريمة نزلت في أوائل العهد المدني بعد غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة.

٢- قال – تعالى –: {لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٨ – ٩]. والآيات الكريمة في سورة الحشر التي نزلت عقب غزوة بني النضير في السنة الثالثة من الهجرة، وهي تزكية عاطرة، وثناء إلهي جليل على المهاجرين والأنصار، وحكم لهم بالصدق، والمحبة، والإيثار، والسخاء في سبيل الله تعالى.

٣- وقال – تعالى –: {لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ١٨]. وهذه شهادة ربانية في شأن أهل بيعة الرضوان، حين بايعوا رسول الله ﷺ على الموت في سبيل الله – تعالى – عام الحديبية (في السنة السادسة من الهجرة).

وفي الآية الكريمة لفتة إلهية جليلة بأنْ حكم على بواطنهم بالخير والإيمان، لذلك أنزل السكينة عليهم، ووعدهم بفتح قريب، وقد حدث ذلك يقيناً في (خيبر) بعدها بأشهر معدودة، ثم فتح مكة الذي هدم الله به قواعد الجاهلية كلها (في رمضان من السنة الثامنة للهجرة).

٤- وقال - تعالى -: {وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ} [التوبة: ١٠٠]. وهذه الآية الكريمة من آخر ما نزل من القرآن الكريم بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة، وهي شهادة ربانية للمهاجرين والأنصار بالسبق والفضل، وللذين لحقوا بهم فأسلموا وأحسنوا وإن لم تطل صحبتهم للنبي ﷺ، كالذين حجوا معه ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة، وقد عمهم الله - تعالى - بخير الدنيا والآخرة حين صرح برضوانه عليهم، وإعداده الجنات لهم، وهذا أعظم الفوز والفلاح.

ويلاحظ أن الآيات الكريمة تغطّي العهدين المكي والمدني جميعاً، فهي شهادة للمهاجرين الذين صبروا قبل الهجرة صبراً جميلاً طويلاً، وشهادة لهم وللأنصار الذين جاهدوا في الله حق جهاده في حرب مشبوبة موصولة من (بدر إلى تبوك) وما بينهما في جهاد المشركين واليهود.

والآيات في هذا الباب كثيرة جداً، مستفيضة، وهي كلام رب العزة العليم الخبير، وكفى بالله شهيداً، وكفى بحكمه الجليل على ظواهرهم

وبواطنهم، وإثبات رضوانه عليهم في الآيات كلها، ومغفرته لهم، ووعدهم بالأجر العظيم، والثواب الجزيل في جنات النعيم.

شهادة النبي ﷺ للصحابة الكرام:

ومن هنا نعلم سر الأحاديث الكثيرة الواردة في هذا الباب، تطبيقاً لما فهمه ﷺ من القرآن، ومن شهادة الرحمن، ثم بلاغاً لما كان يأتيه من الوحي الإلهي بكرة وعشياً خاصاً بهم، وبياناً لفضلهم، وتحذيراً من سبّهم، ومن ذلك:

١- قوله ﷺ في الحديث المتواتر: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم..»[(١)].

٢- وقوله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي! فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفَه». رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخُدْري مرفوعاً. والمُدُّ: مكيال صغير يبلغ نحو رطل وثلث عند أهل الحجاز، وهو ١/ ٢ صاع، والنصيف: مكيال أقل من ذلك، أو نصف المدّ، وهذا غاية في تقرير فضل الصحابة - رضي الله عنهم - وتقدير منزلتهم، وسبقهم سبقاً عظيماً على غيرهم،

(1) الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وقد حكم له بالتواتر عدد من العلماء كابن تيمية في رسالة (الفرقان)، وابن حجر في الإصابة ج١، ص٢١، والسيوطي في كتابه: الأزهار المتناثرة، ص٧٢ حديث رقم ١٠٦، وأورده عن ثلاثة عشر صحابياً (انظر تفصيلاً: كتاب: ملامح النفاق والمنافقين كما بينتها سنة خاتم المرسلين، ص١٤٠ هامش رقم ٣).

حتى ليسبق مدُّ أحدهم إنفاقَ ذهب مثل أحد، وهذا ما لا يملكه أحد، ولا يستطيعه مخلوق فيما نعلم.

ولذلك قال الخطيب البغدادي - رحمه الله -: «والأخبار في هذا تتسع، وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله - تعالى - لهم، المطلع على بواطنهم، إلى تعديل أحد من الخلق له»[1].

دلالة هذا الموقف الشرعي الحاسم:

تقرر من هذا أن الله - تعالى - في كتابه، وبما أوحاه إلى رسوله ﷺ، قد حسم هذا الأمر حسماً صارماً، حتى صار حكماً شرعياً معلوماً من الدين بالضرورة، يجب الوقوف عنده، ويحرم مخالفته، ويفسق من خالفه، ويكفر من أنكره. وسر ذلك ــ والله أعلم ــ ما يأتي:

١- إحقاق الحق في ذاته، وإعطاء كل ذي حق ما يستحقه، وصيانته عن الباطل الذي يضاد حقه، أو يناقص منزلته.

وهذا مطَّرد في أحكام الشريعة الربانية العادلة، كما قال - تعالى -: {وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٥٦].

وحرم الله - تعالى - كل ما يؤذي من السخرية، والهمز، واللمز، والتنابز بالألقاب، وسماه فسوقاً وظلماً، وحرم سوء الظن والتجسس والغيبة... إلخ.

---

(1) الكفاية للخطيب البغدادي ص٤٨، نقلاً عن الكتاب السابق.

قال – تعالى –: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١١ – ١٢].

وقال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه». رواه مسلم (برقم ٢٥٦٤)، وأخرجه البخاري بنحوه (٥١٤٤).

وهذه نصوص عامة تشمل أئمة المسلمين، وعامتهم. وأَوْلَى الناس عند التعامل بها هم أصحاب رسول الله ﷺ، الذين يدخلون في الأمر والنهي دخولاً أولياً، فضلاً عن النصوص الواردة فيهم بأعيانهم خاصة. فوجب التزام الحكم الشرعي من جانبي العموم والخصوص، وهذا غاية التأكيد.

ورحم الله الخطيب البغدادي الذي أورد هنا كلاماً غاية في التوفيق والذكاء فقال: «لو لم يرد من الله – تعالى – ورسوله ﷺ شيء مما ذكرناه، لأوجبت الحال التي كانوا عليها – من الهجرة، والجهاد، ونصرة الإسلام، وبذل المهج والأرواح، وقتل الآباء والأبناء، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان اليقين – القطعَ على تعديلهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل

من جميع المعدَّلين والمزكَّين الذين يجيئون من بعدهم، أبد الآبدين، وهذا مذهب كافة العلماء..»[1].

٢- إنصاف الصحابة لأنهم حملة القرآن والدين، ونقلة الشريعة والأحكام، والطريق المتفرد للأداء والبلاغ عن النبي ﷺ، ومن ثم فهم طريق حفظها واستمرارها، وإلا انقطعت سلسلة البلاغ والاستمرار في أخطر حلقاتها.

ولذلك فتزكيتهم وتعديلهم هو ضرورة لازمة لحفظ الدين كله، وفريضة جازمة لتحقيق الوعد الإلهي بحفظ القرآن والدين، وهو وعد الحق الذي قامت عليه أدلة التواتر التاريخي، والواقع العملي، واليقين البدهي القطعي عن طريق نقل الكافة عن الكافة، وهو أقوى وأثبت من التواتر المحدود بعدد ما في أسانيد الرواة.

وهذا السبب كان هو أقوى الأمور جميعاً لما جاء به الوحي الإلهي من وجوب تعديل الصحابة، وتحريم سبّهم والطعن فيهم تحريماً قاطعاً، وإلا وقع الشك في الدين، وانتقضت العروة الوثقى التي وثقه الله – عزَّ وجلَّ – بها.

وفي ذلك يقول الإمام أبو زرعة الرازي:

«إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا

(1) الكفاية، ص٤٩ (نقلاً عن كتاب: ملامح النفاق، المرجع السابق، ص١٤٢).

هذا القرآن والسنن أصحابُ رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة...»[1].

(1) كتاب ملامح النفاق والمنافقين، المرجع السابق، ص١٤٤ نقلاً عن الكفاية للخطيب البغدادي، ص٤٩.

الفصل الثالث: الطاعنون في الصحابة رضي الله عنهم

تبين مما سبق أن أهل الضلالة قد ركزوا مطاعنهم على الصحابة توسلاً بذلك إلى هدم الدين، وإبطال حقائقه وشرائعه، ولا يزال ذلك دأبهم قديماً وحديثاً، على ما نبينه في إيجاز:

أولاً: المنافقون القدامى:

وهم أقوام من الأعراب ومن أهل المدينة قد أبطنوا الكفر، وأظهروا الإسلام خداعاً وكذباً، وقد فضحهم الله - تعالى - في كتابه الكريم، وعلى لسان رسوله الأمين ﷺ، بما أضمروه من العداوة لله ولكتابه، ولرسوله، وللمؤمنين، وبما فعلوه من الفتن، والدسائس، والتخذيل عن الجهاد. وكان موقفهم من المؤمنين والمؤمنات بالغ السوء والعداوة، ومن ذلك:

١- رميهم أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بالزنى، وإشاعة حديث الإفك بغضاً في النبي ﷺ، وحقداً على الإسلام، وعلى بيت النبوة، وبيت الصـــديق أبا بكر لما يعلمونه من صدق إسلامه. وقد كذّبهم الله - تعالى - في كتابه تكذيباً صريحاً واضحاً فقال - تعالى -: {إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النور: ١١] والذي تولى كبره منهم هو شيخ المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول.

٢- سخريتهم من المؤمنين، وهمزهم ولمزهم، خاصة أهل الصلاح الظاهر من الصحابة، وأهل التقوى منهم، كالأنصار عامة، أو بعض أعيان المؤمنين، كعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً، أو كالقراء الذين يحرصون على أخذ القرآن وغير ذلك مما جاء في التفاسير، وكتب السيرة والسنن. ومن ذلك ما رُوي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال[1]:

قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء... فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن، (يعني بقوله تعالى): {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ} [التوبة: ٦٥ - ٦٦]. أي أن الله - تعالى - عدّ الطعن في قراء الصحابة - رضي الله عنهم - استهزاء بالله وآياته ورسوله، وحكم على أهله بالكفر.

ثانياً: الخوارج:

وكانت فتنتهم بسبب غلوهم في الدين، وسوء التفسير والتأويل، وتطاولهم على أصحاب رسول الله ﷺ، ولذلك خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ورموه بالكفر هو وجمهور الصحابة

(1) تفسير ابن كثير ج٢، ص٣٦٨ عند تفسير آيات سورة التوبة المذكورة.

- رضي الله عنهم - يقول الإمام ابن الجوزي: «وكانت الخوارج تتعبد، إلا أن اعتقادهم أنهم أعلم من علي بن أبي طالب وهذا مرض صعب»[١].

وقد دخل عليهم ابن عباس - رضي الله عنهما - ليناقشهم فقال لهم: "أتيتكم من عند المهاجرين والأنصار، ومن عند صهر رسول الله ﷺ، وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله منكم» ثم عاد لتأكيد هذا المعنى؛ لأنه لبُّ القضية فقال لهم: «هاتوا ما نقمتم على صهر رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار، وعليهم نزل القرآن وليس فيكم منهم أحد، وهم أعلم بتأويله..»[٢].

ولولا هذا الداء العضال من التطاول على الصحابة، وتأويل الدين بالأهواء، لما وقع هذا الصدع الخطير في بنيان الأمة الإسلامية. لكن مضى الخوارج في طريقهم الوعر، فكفروا المسلمين، واستحلوا الدم الحرام، وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون، مع وجود الصحابة - رضي الله عنهم - الذين نقلوا الدين صحيحاً للناس فأبى الظالمون إلا كفوراً.

ثالثاً: الشيعة:

وهم على عكس السابقين، غلوا في محبة علي - رضي الله عنه - وزعموا له ولآل البيت أموراً ما أنزل الله بها من سلطان، وأول من يبرأ

(1) كتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزي، ص٩١.
(2) تلبيس إبليس، ص٩١، ٩٢.

منها ومنهم هو أمير المؤمنين علي وجميع آل البيت – رضي الله عنهم –. وقد تأدى بهم ذلك إلى سب الصحابة، ولعنهم، وتكفيرهم إلا من ناصر علياً رضي الله عنه.

ولقد بادت فرق الخوارج، وبقيت الشيعة بفرقها المتعددة، تشكل خرقاً خطيراً في أمة الإسلام، إذ يجعلون سب الصحابة، والطعن فيهم ديناً يتقربون به إلى الله – بزعمهم – وينسبون لكبارهم وصغارهم شتى الموبقات والخطايا كذباً وزوراً، إلا نفراً قليلاً منهم، وهذا مما يوقع أنكى الشكوك في الدين كله، إذا كان حملته ونقلته بهذه المثابة عندهم.

ولا يزال موقف الشيعة يشكل أشنع وأبشع تدنيس وتلويث في تاريخ الأمة الإسلامية، وهو الذي يفتح أبواب الفتنة على الناس، والفِرق، والمستشرقين، والمنحرفين من أبناء المسلمين كما سنبين بعد قليل إن شاء الله[1].

والأمل في الله – عزَّ وجلَّ – وحده، ليهدي علماءهم وعقلاءهم إلى ما اختلف فيه من الحق بإذنه، وأن يؤثروا رضا الله على مواريثهم.

---

(1) من شاء فليراجع الكتب الآتية للتثبت من صدق ما كتبناه:

أ- مع الاثني عشرية في الأصول والفروع (موسوعة شاملة)، للدكتور علي السالوس.

ب- أصول وعقائد الشيعة الاثني عشرية، للدكتور حافظ موسى عامر.

ج- عصمة الإمام، دراسة مقارنة (ثلاثة أجزاء – رسالة دكتوراه)، للدكتور حافظ عامر.

د- فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السّنّة، للدكتور علي محمد الصلابي.

رابعاً: المستشرقون:

وهم أفواج من علماء الغرب ومفكريه، الذين درسوا علوم الشرق، ولغاته، ومذاهبه، وأديانه، لخدمة كنائسهم، أو دولهم الطامعة في بلادنا، والمعادية لديننا، وقد اصطنعوا لذلك منهجية علمية خادعة، قائمة على الكذب والافتراء، واستطاعوا في فترات ضعف الأمم الإسلامية التأثير في اتجاهات التفكير، والتعليم، حتى فتنوا أجيالاً متتابعة من أبناء المسلمين، وأذابوهم في فتنة الانبهار بالحضارة الأوروبية المعاصرة، بعد أن فرغوهم من حقائق الإسلام، وشحنوا أنفسهم بالمتع والشهوات، وشوهوا لهم النماذج العليا من حضارة الإسلام، وتاريخه، وأصوله. وقد انتهوا بأغرار المسلمين إلى انقلاب خطير، أشبه ما يكون بـ: (الردة الصامتة) كما سماها بعض علماء المسلمين.

وقد ركز هؤلاء الأعداء الألداء على أصول منها:

١- الطعن في القرآن، ونسبته إلى مصادر بشرية، وقطعه عن أصله الأعلى.

٢- الطعن في الرسول ﷺ، وإنكار نبوته، والتشكيك الوقح في سيرته وسنته.

٣- الطعن في أصحابه طعناً منظماً باعتبارهم حملة الدين، ونقلة الشريعة، وقد وجدوا في تراث الخوارج وعقائد الشيعة - قديماً وحديثاً، مستنقعاً هائلاً استمدوا منه مزاعمهم وأضاليلهم!!

وكل ما نجده الآن في الثقافة الأوروبية والأمريكية، أو في موروثات هذه الشعوب، من بغض الإسلام، وعداوة أهله، وتزييف حقائقه وتاريخ،

فالوزر فيه ابتداءً على هؤلاء المستشرقين الكذبة. ونحن لا نستغرب هذا، فليس بعد الكفر ذنب، ولكن الذي يهمنا هنا هو التركيز على تطهير أنفسنا من الداخل، وإيقاف السيل المنهمر من الأضاليل والأكاذيب التي يقولها ويفعلها (**قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**)، أو التي يتهافت عليها أفواج من المثقفين والمبهورين من أبنائنا وبناتنا، كما يتهافت الذباب على المعاطن والقاذورات.

خامساً: المستغربون:

وهم إجمالاً: الذين فتنوا بالغرب وأفكاره، وطرائقه في العيش والحياة، ثم انقلبوا ينظرون لدينهم، وتاريخ أمتهم بقلوب منكوسة، وعقول معكوسة، فصاروا على أمتهم مثل أعدائها أو أشد وأنكى! وهم تفصيلاً: أصناف شتى، مثل:

(أ) تلاميذ المستشرقين:

وهم الثمار المرّة لتربيتهم المباشرة، أو للتشبع بمذاهبهم ومناهجهم الفاسدة، فتسممت أفكارهم وقلوبهم بالشبهات والأضاليل، وصاروا يرددونها كالببغاوات، فكان الفرع شراً من الأصل أحياناً، في الجرأة على الله ورسله وكتبه..!!

(ب) تلاميذ المذاهب الإلحادية المعاصرة:

وهي مذاهب انحلالية فاسدة، أو مذاهب عقائدية كافرة، لا تؤمن بالله ولا بالمرسلين، بل تكفر بكل دين (كالماركسية)، وكالشيوعية التي انبثقت منها، وعمادها: (لا إله والحياة مادة).

وهؤلاء لا يزالون أخبث الفرق، وأشدهم جهالة وعمى، وجموداً على ما تلقنوه، إذ جعلوه ديناً جديداً يعتنقونه، ويسعون لنشره، وهو (دين الإلحاد) فعلاً، وأصحابه مجردون من كل القيم والشرف، لذلك انطلقوا في أوساط (المثقفين) دعاة إلى أبواب جهنم، يستخفون بكل الحقائق، ويستحلون كل محرم جاءت به شريعة الله عز وجل.

ولما كان الإسلام هو الجبل الأشم الراسخ الذي وقف في وجوههم، لذلك خصوه بأوجع نصيب من الطعون والأكاذيب، حتى وصل الأمر ببعضهم[1] إلى تأليف كتاب عن السيرة النبوية الشريفة سماه أولاً: (صناعة نبي) وتبنّى فيه كل ما قاله فلول المنصّرين، أو زعمه قساوسة المستشرقين والحاقدين على النبي الكريم ﷺ، ولـمّا خاف عاقبة جريمته غيّر اسم الكتاب إلى (سيرة الصادق الأمين) سخرية، وحشا تحت هذا العنوان كل ضروب الإفك والأكاذيب، التي أرادها من العنوان الأصلي.

(1) هو شيوعي مصري معاصر كان يتسمى باسم: (الشيخ: خليل عبدالكريم) وقد هلك منذ سنوات معدودة.

وألف كتاباً سماه: (مجتمع يثرب) حشاه بكل ألوان الإفك عن الصحابة رضوان الله عليهم، وصورهم بصورة السكارى، والزناة، والمتآمرين... إلخ، وهم أنبل أمة درجت على الأرض، وأشرف مجتمع عرفه تاريخ البشر. ويلاحظ اختياره اسم (يثرب) بدل (المدينة) وهو اسمها الإسلامي، وبذلك دلّ على صفته من العنوان؛ لأن المنافقين هم الذين كانوا يطلقون عليها هذا الاسم القديم، كما قال - تعالى - {وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟} [الأحزاب: ١٢ - ١٣].

(ج) الزنادقة المعاصرون:

المشهور في معنى الزنديق: أنه الذي لا يتمسك بشريعة، ويقول بدوام الدهر، والعرب تعبر عن هذا بقولهم: (ملحد) أي: طاعن في الأديان. وهذا ينطبق تماماً على أخلاط من المعاصرين، لا ينتسبون لأنماط فكرية أو عقائدية محددة، أو يأخذون من مدارس ومذاهب شتى، أو يندفعون تحت شعارات الحرية، والبحث العلمي المزيف إلى ألوان فاحشة من الأضاليل والأباطيل، ليس لها زمام ولا خطام، كالذين قال الله - تعالى - فيهم: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام: ١١٢].

وهذا النوع واسع النطاق، يمتد في كل الطبقات، ويشمل جميع أنشطة الحياة كالصحافة والإعلام، ومؤسسات التعليم والقانون، والسياسة والاقتصاد، ناهيك عن محترفي الآداب والفنون!

أمثلة متعددة:

ولنأخذ أمثلة تتعلق بموضوعنا مباشرة (عن الصحابة رضي الله عنهم) وسنشير إلى ذلك بإيجاز شديد:

أولاً: إفك قديم:

في أوائل القرن الخامس عشر الهجري كتب كاتب يساري الاتجاه، شيوعي الهوى، سلسلة مقالات في أوسع الجرائد اليومية انتشاراً بعنوان: (عليّ إمام المتقين). وكان في استطاعته أن يجد فيضاً واسعاً من فضائل أمير المؤمنين ومناقبه، يؤسس بها في نفوس الناس محبة علي وآل البيت، ويبرز من خلالها جلال التربية النبوية لأصحابه جميعاً، ولكن الكاتب جنح بها إلى شر سبيل، وجعلها وسيلة للهجوم على الصحابة جميعاً باستثناء علي رضي الله عنه. وقد ردّ عليه الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - في محاضرة طويلة مشهورة، نشرها في كتابه: (علل وأدوية)[1].

يقول الشيخ - رحمه الله -: «... ومضى الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في طريقه يفسر الوقائع بمعايير الفكر اليساري، ويقرأ كتب التاريخ غير مميز بين حقيقة وشائعة، وبين صحيح وموضوع، وغير

(1) ص٢٥٢ - ٢٨٠.

مدرك لمكانة الرجال الذين يتحدث عنهم، فجاءت مقالاته بعيدة كل البعد عن المنطق العلمي، كما جاءت بعيدة الأثر في الإساءة إلى الإسلام والصحابة...»[١].

«... وقد عجبت لـمّا رأيت الأستاذ الشرقاوي يقص أخبار الفتنة الكبرى على نحو يحرك الحزازات، ويهيج جمهور أهل السنة! لقد جعل العشرة المبشرين بالجنة مبشرين بالنار، ماعدا علي بن أبي طالب، حتى عمر بن الخطاب كاد يهلك لولا فضل (عليّ) عليه! أما البقية فأغنياء تكويهم ثرواتهم يوم القيامة!...»[٢].

«إن التحصن بعلي بن أبي طالب لضرب بقية الأصحاب خطة قديمة لضرب الإسلام ذاته، وتقويض قواعده الأولى..!»[٣].

ثانياً: إفك جديد:

وعلى هذا النمط، وفي شهر رمضان الماضي ١٤٢٧ هـ طلعت علينا جريدة بعنوان غريب هو: «أسوأ عشر شخصيات في الإسلام»! من عائشة أم المؤمنين إلى عثمان الخليفة الراشد، وحتى الأب الرئيس والابن الوريث[٤].

---

(1) السابق، ص٢٥٤.

(2) السابق، ص٢٦٨.

(3) السابق، ص٢٧٩.

(4) جريدة (الغد) القاهرية، السنة الثانية، العدد: ٨١، الأربعاء ١١ من رمضان ١٤٢٧هـ (٤/ ١٠/ ٢٠٠٦م).

وأصدرت بذلك (ملحقاً) متوسط الحجم، سهل الحمل، غاصاً بالعناوين الغليظة الخطّ، الكثيرة العدد، إمعاناً في لفت الأنظار، وتركيز الأبصار على امتداد ثماني صفحات.. هذا من حيث الشكل!! أما من حيث المضمون فغاية في السوء والتحريض، ومحاولة تأصيل الدنس، وإغراء القارئ العادي بالبحث والتفتيش عن عيوب الصحابة وخطاياهم المزعومة!

يقول الأفّاك كاتب هذا الملحق في صدارة تقديمه:

«أنت قلق، وتشعر بالخوف، وتشعر أيضاً أن الله لن يرضى عنك إذا كوّنت آراء سيئة في صحابة رسوله وتابعيه. لكن اطمئن، صحابة رسول الله وتابعوهم ملأوا كتب السيرة والتاريخ الإسلامي بانتقادات حادة ضد بعضهم البعض، وشتائم قاسية، واتهامات لا يمكن أن تتخيلها.

إذن المشكلة فيك أنت عزيزي القارئ، أنت الذي لا تريد أن تعرف، تريد أن تغمض عينيك ليتساوى الأبيض والأسود، والمخطئ والمصيب»[1].

والكتب التي يشير إليها هي كتب في التاريخ، والأدب، والحكايات المرسلة، تورد كثيراً من الروايات الساقطة، ذات الأسانيد التالفة، أو التي لا سند لها ولا أساس، وهؤلاء الزنادقة يعلمون أننا أمة تتميز (بالإسناد)، وتمحيص الروايات، وعندنا - بحمد الله - من كتب

(1) مقدمة (ملحق) العدد السابق بتاريخه.

الصحاح، والسنن الموثقة ما يكفي لإثبات أنبل الصفات وأشرفها للصحابة رضوان الله عليهم، لكن عين الزنادقة لا ترى إلا المساوئ، فإن لم تجد اختلقت الإفك، واخترعت الأضاليل، ثم خرّت عليها كأنها أوثان مقدسة عندهم، وصدق الله:{إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا} [العنكبوت: ١٧].

وهذه قضية تحتاج إلى بسط طويل لا يتسع له المقام في هذه الصفحات المحدودة. ولكن يبقى في ختام هذا الإيجاز (أمران مهمان) تتقرر بهما الحقائق لمن أراد الهدى:

الأول: العدالة لا العصمة:

فالصحابة ــ بصريح القرآن والسنة ــ عدول خيار، بلغوا الغاية في الصدق والأمانة حين نقلوا لنا الدين والأحكام، وكانوا على غاية التطبيق والالتزام، وقد تواتر بينهم قوله ﷺ: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1].

وقوله – عليه السلام –: «نضّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها...». وقد قال النبي ﷺ ذلك على ملأ من الصحابة في

(1) هذا حديث متواتر رواه الشيخان وغيرهما، وقال ابن الجوزي: رواه عن النبي ﷺ ثمانية وتسعون صحابياً منهم العشرة، ولا يعرف ذلك في غيره. وذكر ابن دحية أنه خرّج من نحو أربعمائة طريق (انظر الحديث رقم: (٢٥٩٣) من كتاب: كشف الخفا ومزيل الإلباس للعجلوني، ج٢، ص٢٧٥).

خطبته في مسجد (الخيف) بمنى عام حجة الوداع، لذلك رواه عنه جمع كبير من الصحابة رضي الله عنهم[١].

أما ادعاء (العصمة) لهم فلم يقل به أهل السنة قط، بل ادعتها الفرق المنحرفة لأئمتها بلا دليل ولا برهان، فيجوز على جميع البشر - غير الرسل - الخطأ والنسيان، والاجتهاد بنوعيه، والوقوع في المخالفات بلا استحلال للباطل.

والصحابة بشر، لكنهم موفقون للحق والورع والصلاح، ولم يثبت عنهم قط أنهم كذبوا في الدين، أو تقولوا في النقل عن الله ورسوله، حتى في زمن الفتن العاصفة التي دخلت على حياتهم رضي الله عنهم.

وقد أحسن أبو سلمة بن عبدالرحمن حين وصفهم بهذا الوصف الجامع فقال: «لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ منحرفين، ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الأشعار في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون»[٢]. وفي رواية أخرى: «كان أصحاب محمد ﷺ يتمازحون، ويتبادحون بالبطيخ، فإذا جاء الحق كانوا هم الرجال».

---

(1) رواه أصحاب السنن وغيرهم بطرق كثيرة، وألفاظ مختلفة عن ابن مسعود، وأنس بن مالك، وزيد بن ثابت مرفوعاً. وقد ذكره السيوطي في (الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة) وقال: في أوله في كثير من طرقه: «خطبنا بمسجد الخيف من منى..» وانظر كشف الخفا (السابق) ج٢، ص٣١٩ حديث رقم (٢٨١٣).

(2) تلبيس إبليس لابن الجوزي، ص٢٩١.

الثاني: الآثار الخطيرة المترتبة على سب أصحاب محمد ﷺ.

إن بغض الصحابة من حيث المبدأ هو عقيدة المنافقين ودأبهم، والله - تعالى - يقول: {إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ} [النساء: ١٤٥]، أما سبهم ورميهم بالكفر أو الفسوق، أو المروق من الدين، على نمط ما قامت به بعض الفرق المنحرفة قديماً، وما تفعله الرافضة قديماً وحديثاً، والزنادقة وأمثالهم، متعللين بالظنون والأوهام والأكاذيب، فهذا أمر بالغ الخطر والأثر، ويؤدي إلى أوخم النتائج، ومنها:

(أ) تكذيب الوحي الإلهي:

وقد زكاهم، وعدّلهم، وأثنى عليهم، ووعدهم النصر في الدنيا، والجنات في الآخرة، وقد أنجز لهم وعد الدنيا بعد رسول الله ﷺ، وهو لا يخلف الميعاد في الآخرة يقيناً، فدل هذا على صلاحهم، وسموهم، واستمرارهم على الحق الذي يدخلهم ربهم به الجنة بإذنه. والسبّابون يصفونهم بالكفر، وبالردة، وبالنفاق، وبأنهم خانوا عهد رسول الله بعد وفاته.

فكيف يجتمع النقيضان؟! وكيف يجرؤ عاقل على تكذيب الله ورسوله؟! والجواب البدهي: إن الله يعلم وهم لا يعلمون. وإن الوحي الإلهي صادق وهم كاذبون.

(ب) هدم الدين جملة:

لأنهم حملة الدين، ونقلة الشريعة، ابتداء من ألفاظ القرآن، وسنة الرسول ﷺ، ولا يصح وصفهم بحرف واحد مما تقوّله الضالون الكذابون،

وإلا انهدم كل ما نقلوه لنا من الدين والرسالة. وقد تعهد الله بحفظ دينه وكتابه، ثم الواقع شاهد، وكفى بالله شهيداً، فدل ذلك على براءة أصحاب محمد ﷺ، بل دل على طهارتهم وسموهم، ووفائهم بما عاهدوا الله عليه، والفتنة التي ابتلوا بها كانت بلاء عابراً جسيماً.

(ج) ابتداع دين جديد:

إن إصرار المبطلين على سب الصحابة يؤدي إلى إبطال الإسلام الذي نقلوه لنا، ولابد للناس من دين، فما هو الدين الذي يكون عليه السبابون؟ إنهم حينئذٍ سيقعون في واحدة من بلايا، كلها شر مستطير:

١- أن يتخبطوا في أهوائهم وضلالهم حتى يخرجوا من الدين وهم يحسبون أنهم أئمته، كما قال - تعالى -: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلاً ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤]. وهذا ما حدث مع (الخوارج) حين صادموا الصحابة، وردوا أقوال المهاجرين والأنصار، فحق فيهم قول النبي ﷺ: «... يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة...» رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري، وسهل بن حنيف، وعلي بن أبي طالب، وأبي ذر الغفاري وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

٢- ابتداع دين ملفق من بقايا الإسلام ومحدثات العقائد والأحكام، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة[1]، وهذا ما انتهى إليه الرافضة من الشيعة، حين كفَّروا الصحابة، ورفضوا أن يأخذوا عنهم، واخترعوا لأنفسهم مصادر أخرى تقوم على الاختراع والابتداع، كالقول القاطع بتحديد الأئمة في أناس بأعيانهم من آل البيت - رضي الله عنهم - ثم ادعوا لهم العصمة، وقدّموهم حتى على الرسل؛ بل قربوهم في اعتقادهم من (التأليه) مع الله - تعالى -، ثم استمدوا منهم سائر البدع كذباً وزوراً، عدا ما حرفوه من معاني الإسلام. وهذا الأمر أشنع من فعل الخوارج؛ لأنه تأسيس لدين جديد، وتأصيل للضلال باستحلال التشريع من دون الله، وإنكار المعلوم من الدين بالضرورة، واعتقاد ما لم يأذن به الله، والتعبد بما حرم الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وقد أنكر الله - تعالى - ذلك على سائر الفرق، وبرأ منهم رسوله ﷺ قال - تعالى -: {إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ} [الأنعام: ١٥٩] والآية الكريمة تستنكر تفريق الدين أوّلاً، ثم ما يؤدي إليه من تفريق الأمة إلى شيع وأحزاب متضاربة.

٣- إعلان بطلان الإسلام، وفتح باب النبوة من جديد، وقيام فرق تؤمن بأدعياء النبوة المبتدعة، وبكتب أخرى تنسخ الإسلام كما نسخ هو

(1) الحديث: «... وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» رواه أبو داود والترمذي وهو صحيح.

ما قبله، ومن ذلك (القاديانية) وما تفرع منها، (والبهائية) التي خرجت من مذاهب الشيعة، وأمعنوا في التحريف أكثر من سابقيهم.

خاتمة
تلخيص ومقترحات

خلاصة البحث:

يدور البحث حول إبراز فضائل الصحابة – رضي الله عنهم – وأنهم صدارة الأمة الإسلامية المستخلفة في الأرض إلى يوم الدين، لتبليغ الرسالة الخاتمة، وإقامة حجة الله على العالمين.

ويحذر البحث غاية التحذير من الطعن في أصحاب رسول الله صلى الله عليه سلم باعتبارهم حملة الدين ونقلة الشريعة، أوسبّهم، أو الطعن فيهم يؤدي إلى نتائج خطيرة جداً، منها تكذيب الوحي الإلهي، وهدم الدين الذي لم يصلنا إلا عن طريقهم، وهذا بدوره يفضي إلى ابتداع دين جديد ما أنزل الله به من سلطان.

وقد بين البحث أنواعاً من الطاعنين فيهم قديماً وحديثاً، من غير المسلمين، وممن ينتسبون للإسلام، وهؤلاء أخطر أثراً، وأنكى ضرراً؛ لأنهم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، وهم أولى بالبيان والنصح، ثم المقاومة والزجر إن لم يتوبوا إلى ربهم، والله الهادي إلى سواء السبيل.

مقترحات:

١- دعوة الأمة جميعاً إلى فهم هذه القضية الخطيرة والاهتمام بها لصلتها ببقاء الدين، وامتداد الإسلام.

٢- ترسيخ هذه القضية في وعي الأمة باعتبارها حكماً شرعياً، ونصاً قرآنياً، وسنة متواترة لا تحتمل الخلاف ولا أنصاف الحلول.

٣- دعوة المؤسسات الإسلامية؛ كالجامعات، والجمعيات، والنوادي العلمية، والمساجد، إلى تبنِّي هذه القضية بشتى الوسائل، وبيان الأخطار الماحقة التي تترتب على الطعن في صدر هذه الأمة الذين زكاهم الله عز وجل، وزكاهم رسوله، واستغفر لمسيئهم، وبشرهم بالفضل والتمكين، وجنات النعيم.

٤- ينبغي العناية بالمناهج الدراسية لتأسيس أبنائنا على إجلال الصحابة وتوقيرهم، وتوجيه الرسائل العلمية لخدمة هذا الغرض، وكذلك الكتب العلمية والأدبية، واستخدام المحاضرات، والندوات، وفنون القصة، والمسلسلات الإذاعية بأنواعها، حتى يتأسس وعي عام على هذا الحق الذي قرره القرآن، وجاءت به السنن الصحاح، وشهد به التاريخ الصحيح.

٥- العناية بالرد على المتطاولين بالباطل، ومناقشتهم بالحجة والبرهان، وتجلية الحقائق الصحيحة لهم، في الداخل والخارج، بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن الحق والصدق والفضل عندنا بحمد الله، والحق أبلج، والباطل لجلج لا يثبت إلا بتفريط أصحاب الحق.

٦- العناية الجادة بتنقية الكتب القديمة مما حشد فيها من روايات تالفة، وأخبار كاذبة، وتوجيه طلاب الدراسات العليا لخدمة هذه الكتب، وتحقيقها بالرسائل الجامعية الوثيقة.

٧- تنظيم مسابقات علمية وأدبية جادة، وذات جوائز قيمة للتأليف في تصحيح تاريخنا القديم وبيان الحقائق التي زيّفها أهل الباطل، وهذا مجال الجمعيات الخيرية الكبرى، وأصحاب البذل والعطاء ممن يريدون للصحابة الإنصاف والإجلال، وللأمة الإسلامية التآلف والاتحاد. والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فهرس أهم المراجع

١-القرآن الكريم.

٢-تفسير ابن كثير.

٣-كتب السنة المتعددة (كالصحيحين والسنن).

٤-كشف الخفا ومزيل الإلباس، للشيخ إسماعيل العجلوني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥-ملامح النفاق والمنافقين كما بينتها سنة خاتم المرسلين، للدكتور محمد أنور البيومي، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ، مؤسسة العلياء، القاهرة.

٦-تلبيس إبليس للإمام ابن الجوزي، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ١٣٦٨هـ.

٧-مع الاثني عشرية في الأصول والفروع (موسوعة شاملة)، للدكتور علي السالوس، الطبعة الرابعة ١٤٢٣هـ، دار الفضيلة، الرياض.

٨-أصول وعقائد الشيعة الاثني عشرية، للدكتور حافظ موسى عامر.

٩-عصمة الإمام في الفقه الشيعي (دراسة مقارنة) ثلاثة أجزاء للدكتور حافظ موسى عامر. كلاهما طبعة مكتبة الإمام البخاري للنشر، مصر، الإسماعيلية، ١٤٢٧ هـ.

١٠-فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة، للدكتور محمد علي الصلابي، الطبعة الأولى، القاهرة، مؤسسة اقرأ، ١٤٢٦ هـ.

١١-علل وأدوية للشيخ محمد الغزالي، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٤١١ هـ.

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية

الأمانة العامة للأوقاف

مجلة البيان

الطعن في القرآن الكريم

د. عبد المحسن بن زبن المطيري

أستاذ التفسير بكلية الشريعة جامعة الكويت

الأعمال الخيرية
Benevolent Act Mabarrat

الطعن في القرآن

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد عرف أعداء الإسلام أن مصدر عزة هذا الدين وأهله، وسر تجدده في نفوس المسلمين هو هذا القرآن العظيم، الذي لا يخلق من كثرة الترداد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يمله القارئ والسامع ولا يزداد به المؤمن إلا يقينا بدينه وتعلقا به، هذه المعجزة الخالدة، والآية الباقية ما بقي الليل والنهار، هذا الكتاب الذي وعد الله تعالى بحفظه بقوله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ} [الحجر:٩].

ولما كانت هذه منزلة القرآن، اجتهد أعداء الدين بالطعن في هذا القرآن؛ حتى يسلخوا المسلمين من التعلق به، فيصبحوا صيداً سهلاً وغنيمة باردة. وحرب أعداء الدين هذه ليست فقط على القرآن، بل على كل أساساته وقواعده؛ فهناك الحرب على الرسول ﷺ وسنته[١]، والطعن في عدالة الصحابة، والحرب على المرأة المسلمة[٢] وحجابها وعفافها، والحرب

---

(1) انظر: كتاب: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام مناقشتها والرد عليها، د. عماد السيد الشربيني، دار اليقين، المنصورة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، وكتاب القرآنيون وشبهاتهم حول السنة، خادم حسين إلهي بخش، الطائف، مكتبة الصديق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩ .

(2) انظر: كتاب: ماذا يريدون من المرأة لعبدالسلام بسيوني، طبع إدارة الشؤون الإسلامية في قطر، فإنه نفيس في هذا الباب، وكتاب عودة الحجاب، لمحمد إسماعيل المقدم، الرياض، دار طيبة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ .

على بعض الشعائر كالجهاد[1]، وغيرها من الجبهات، ولكن الحرب على القرآن هي أخطرها وأشدها وأشرسها؛ لأن القرآن هو الذي يدل على الأصول السابقة ويحث عليها، فهو أصلها وهي فروعه، وبذهاب الأصل تذهب الفروع؛ ومن هنا عزمت في هذه الرسالة على جمع هذه المطاعن والإشكالات التي تثار الآن، والتي هي عبارة - في غالبها - عن ترديد لما سبق، فلو عرفها الناس وتحصنوا منها لما حصل هذا الاضطراب من هذه الشبه .

ومن أهداف البحث أيضا الرد على المستشرقين الذين يطعنون في هذا الدين، ويشككون في قدسية وعصمة كتابه. وكذلك الرد على المعاصرين الذين تأثروا بهذه الشبه وبدأوا يرددونها.

ومن هنا كان هذا البحث.

(1) انظر: أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، يوسف إبراهيم الشيخ عيد، دار المعالي، عمّان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨ .

(الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين)[١]

وليس من منهجي أن أجمع كل ما أثير، بل أجمع ما كان فيه شبهة وقد يقع فيه اللبس عند بعض الناس، وأما بعض الطعون التي يوردها الطاعنون بسبب جهلهم باللغة، أو سوء فهمهم، أو تحريف المعنى، أو الكذب، أو الدعوى المجردة عن الدليل، أو يسبب الحقد الدفين، فهذا يكفي ذكره في إبطاله، ويكفيك من شر سماعه، مثل إنكارهم بلاغة القرآن وهم أبعد الناس عن تذوق بلاغة القرآن، أو تفسير بعضهم قوله تعالى: {وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ} [الزمر:٧٥]؛ فقد قال بعض المستشرقين في تفسير معنى {حَآفِّينَ}: أي بدون أحذية[٢]. (وفسر بعض المستشرقين قوله تعالى: {وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ} [الإسراء: ١٣] بقوله: يأتي الكافر وفي رقبته حمامة .ومنهم عَلَّامة تصدى لوضع المعجمات الكبرى[٣]، فكتب في مادة (أخذ) أنها تأتي بمعنى نام لقوله تعالى: {لَا تَأْخُذُهُۥ

---

(1) وهو تلخيص لرسالتي الدكتوراة (دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها).

(2) انظر: الإسلام دعوة عالمية ومقالات أخرى، لعباس محمود العقاد (ص: ١٨٩)، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.

(3) وَصْفُ العقاد لهذا المستشرق بالعَلاّمة هو من باب: التهكم والاستهزاء بجهله الشديد باللغة العربية، وقد فضح جهله هذا تفسيره لمادة (أخذ) بمعنى نام مخالفًا بذلك جميع معاجم اللغة، فصار كمَن تخصص في وضع معجمات لنا لا نعرفها.

سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} [البقرة:٢٥٥])[١]. ومثل ادعاء بعضهم أنه وجد مخطوطة بخط النبي ﷺ، وبالتالي يثبت أنه لم يكن أمياً[٢]، وقول بعضهم: إن معنى قوله تعالى: {ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ} [الأعراف:١٥٧] أن أمي بمعنى وثني[٣]. وادعاء بعضهم أن الوحي عبارة عن صرع كان يصيب النبي ﷺ[4]. أو النزول إلى الدرك الأسفل من الدناءة بإطلاق لفظ (الخراء) على القرآن، كما في كتاب حيدر حيدر[٥] (وليمة

---

(1) انظر: اللغة الشاعرة مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية، لعباس محمود العقاد (ص: ٧٥)، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.وذكر محمد العوضي في مقال له عن الاستشراق في جريدة الحدث الكويتية (العدد: ٩٦) بتاريخ ٥ أكتوبر سنة ٢٠٠٢: أن أحد المستشرقين فسر قوله تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ} [البقرة: ١٨٧] بقوله: يعني هن بنطلونات لكم وأنتم بنطلونات لهن).

(2) المرجع السابق (ص: ١٩٢) وفيه أن صحف القاهرة نقلت هذا الخبر عن صحيفة بيروتية اثبت فيها واجدها انه بخط النبي ﷺ، ومن المعلوم أنه لا يمكن إثبات هذا إلا عن طريقين؛ أحدهما: أن تكون عندنا مخطوطة مكتوبة بخط النبي ﷺ ونقارن بين الخطين، وهذا غير موجود بداهة.الثانى: أن يشهد شهود عدول أن النبي ﷺ كتبها، وهذا مما لا وجود له أصلاً .

(3) انظر: دفاع عن القرآن ضد منتقديه، لعبدالرحمن بدوي (ص: ١٥)، الدار العالمية للكتب والنشر، القاهرة.ويقول بدوي في هذا الكتاب (ص: ٧): إن معرفة المستشرقين للغة العربية من الناحية الأدبية أو الفنية يشوبها الضعف، ويمكن القول أن هذه الملاحظة تخصهم جميعا تقريبا.اهـ .

(4) انظر: حاضر العالم الإسلامي، لستودارد (١/ ٣٤)، ترجمة عجاج نويهض، دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٣ .

(5) حيدر حيدر: كاتب سوري معاصر من سكان قرية (حصين البحر) القريبة من ميناء طرطوس، ألف رواية"وليمة لأعشاب البحر"وملأها بالاستهزاء والسخرية من

لأعشاب البحر)[١]، وغير ذلك من السفاهات .

الطـعون على الـقرآن تنقسم قسمين، طعون حول القرآن، وطعون في القرآن؛ الطعون حول القرآن من مثل الطعن في جمع القرآن، وتواتر القرآن، وتقـسيم القرآن إلى مكي ومدني، ونزول القرآن على سبعة أحرف، ومعنى المتشابه في القرآن، والنسخ في القرآن، وترجمة القرآن، وإعجاز القـرآن، وقـراءات القرآن ...إلخ، تلك الشـبه التي تـحوم حول القرآن ولا تطعن في آياته طعنا مباشرا، وهذا البحث كفانا فيه عدد من العلماء الأفاضل والباحثين الأجلاء، ومن أفضل هذه الكتب التي اطلعت عليها، كتاب «شبهات حول القرآن وتفنيدها» للدكتور غازي عناية[٢]، وبعضهم أفرد في بعض هذه المباحث مؤلفا، مثل كتاب «المستشرقون وترجمة القرآن الكريم» للدكتور محمد صالح البنداق[٣]. وفي كتاب «القراءات وأثرها في التفسير والأحكام» للدكتور محمد بن عمر بازمول[٤] عقد باباً بعنوان (رد الشبهات التي تثار حول القراءات) أجاب فيها على كل ما يثار حول هذا الموضوع، وكتاب القراءات في

الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكتابه ودين الإسلام، والرسل والأنبياء، والأزهر، وغير ذلك.انظر: كتاب"الملحدون الجدد"لجمال عبد الرحيم (ص: ١٢٥)، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ .

(1) انظر الملحدون الجدد لجمال عبد الرحيم (ص: ١٢٧) .

(2) طبعته دار ومكتبة هلال للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ .

(3) دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣ .

(4) طبعته دار هجر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ .

نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي[١]، وكتاب نزول القرآن على سبعة أحرف للدكتور مناع القطان[٢]، وفي مجلة لواء الإسلام بحث لعبد الباري إبراهيم أبو عبلة في الجواب على طعون المستشرقين في لغة القرآن ونحوه[٣].

ومن أشد الكتب التي طعنت في هذا الباب كتابان:

١-القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، لبلاشير[٤].

٢-مقدمة كتاب المصاحف لأبي داود، لآرثر جفري.

رد عليهما الدكتور إسماعيل سالم عبد العال في كتابه المستشرقون والقرآن، في جزأين[٥].

وأما النوع الثاني وهو الطعن في القرآن نفسه من حيث دلالالته ومعانيه وأخباره وأحكامه وغير ذلك، وهو الذي أبحث فيه، والسبب في ذلك أن هذا النوع هو الذي تولى القرآن الرد فيه على الطاعنين؛ ولأن الرد

---

(1) من منشورات مكتبة الدار بالمدينة المنورة .

(2) مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٩٩١ .

(3) العدد ٣، للسنة الحادية والثلاثين، تاريخ نوفمبر ١٩٧٦، ص: ٣٥ .

(4) ريجي بلاشير (١٩٠٠-١٩٧٣) مستشرق فرنسي، ولد في باريس وسافر مع والديه إلى المغرب ودرس في الدار البيضاء، وعين أستاذا للغة العربية في المدرسة الوطنية للغات الشرقية في باريس، وتولى عدة مناصب كبيرة وألف كتبا كثيرة عن الإسلام.انظر: موسوعة المستشرقين، للدكتور عبدالرحمن بدوي، (ص: ١٢٧) دار العالم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣ .

(5) أصدر الكتاب رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وهو من إصداراتها الدورية تحت سلسلة دعوة الحق، السنة التاسعة، العدد ١٠٤، لعام ١٤١٠هـ.

على هذه الشبه فيه الرد على تلك الشبه بطريق اللزوم، فإنه إذا ثبت أن القرآن ليس من عند النبي ﷺ، بل من الله تعالى، وهو غير قابل للنقد، وأنه ليس فيه تحريف ولا زيادة، وأنه صادق الأخبار وواجب الاتباع، إذا ثبت هذا فإن الله قال فيه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ} [الحجر:٩]، إذن فلا مجال للطعن في تواتره وجمعه وقراءاته وما نسخ منه؛ لأنه محفوظ بحفظ الله له .

وقد حرصتُ على الردود الإجمالية لكل طعن فى فصل الردود التفصيلية على من طعن في القرآن؛ لأنها الأهم، فهي صالحة لما قد أُثير ولما يمكن أن يثار في المستقبل، وأما الردود التفصيلية على كل طعن فإنها لا تنتهي، وقد يُفتح لإنسان مالا يُفتح على غيره في الرد، وبعضها طعن ساذج لا يستحق الرد.

أولاً: التعريف:

الطعن: لكلمة طعن معنيان؛ حسي، ومعنوي؛ فالحسي بمعنى الضرب بآلة حادة كالخنجر، وهو المتعدي للمفعول (طعنه)، والمضارع منه مضموم العين (يطعُن) وبعضهم يفتحه، والمعنوي بمعنى القدح في شيء، سواء كان نسباً، أو كتاباً، أو شخصاً، أو غير ذلك، وهو اللازم (طعن فيه)، والمضارع منه مفتوح العين (يطعَن).

ثانياً: تعريف القرآن:

هو كلام الله المعجز المنزل على محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف،

المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته[١]. والقرآن من المشهورات التي لا تحتاج إلى تعريف .

ثالثاً: تعريف الطعن في القرآن:

الطعن في القرآن: هو أحد مباحث علوم القرآن، التي تبحث في الرد على من طعن في كتاب الله، أو زعم تناقضه، أو إشكاله، والرد عليها بالأدلة الشرعية، والعقلية، والحسية[٢].

هناك عدة مصطلحات في تسمية هذا العلم، ترادف مصطلح الطعن في القرآن وهي:

١- المتشابه أو المشتبه .

٢- موهم الاختلاف أو مختلف القرآن .

٣- موهم الاضطراب .

٤- أسئلة القرآن .

---

(1) انظر: مناهل العرفان للزرقاني (١/ ١٥)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، وانظر: كتاب النبأ العظيم للدكتور محمد عبدالله دراز (ص: ١٠) دار طيبة للنشر الطبعة الأولى، ١٩٩٧، وانظر: المناظرة في القرآن، عبدالله المقدسي (١/ ٢٢)، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩، تحقيق الجديع، وغير ذلك.

(2) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/ ٥٣)، بيروت دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/ ٧٩)،، القاهرة، مكتبة دار التراث، باهر البرهان في مشكلات القرآن لبيان الحق النيسابوري (١/ ١١٢) .

٥- غامض القرآن .

٦- مشكل القرآن .

أقدم الطعون:

حديث الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ:لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ: {يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ} وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا. فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ»(١).

وهذا الطعن الذي ذكر في الحديث، مع أن النبي ﷺ أجاب عليه، إلا أنه لا يزال يردد إلى يومنا هذا، كما سترى فيما سيأتي إن شاء الله .

معرفة أعداء الإسلام عظيم أهمية القرآن:

عرف أعداء الله أهمية كتاب الله تعالى في نفوس المسلمين، ومدى تعلقهم به، وعلموا أنه هو باعث نهضتهم، ومحيي همتهم، وموحد كلمتهم، وسبب نجاتهم وقوتهم.

يقول الحاخام الأكبر لإسرائيل سابقاً مردخاي الياهو، مخاطبا مجموعة على وشك الالتحاق بالجيش الإسرائيلي: (هذا الكتاب الذي يسمونه القرآن هو عدونا الأكبر والأوحد، هذا العدو لا تستطيع وسائلنا العسكرية مواجهته، كيف يمكن تحقيق السلام في وقت يقدس العرب والمسلمون فيه كتابا يتحدث عنا بكل هذه السلبية؟! على حكام العرب أن يختاروا؛

(1) أخرجه مسلم (كتاب الآداب، باب: النهي عن التكني بأبي القاسم، وبيان ما يستحب، رقم: ٢١٣).

إما القرآن أو السلام معنا)[١].

وفي بدايات هذا القرن كان الجنود الإيطاليون يتغنون بأنشودتهم: (أنا ذاهب إلى ليبيا فرحا مسرورا، لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ومحو القرآن، وإذا مت يا أماه فلا تبكيني، وإذا سألك أحد عن عدم حدادك فقولي: لقد مات وهو يحارب الإسلام)[٢].

ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر: (إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلمون العربية)[٣].

ويقول وليم جيفورد: (متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيدا عن محمد وكتابه)[٤].

ويقول اللورد كرومر في مصر: (جئت لأمحو ثلاثاً: القرآن والكعبة والأزهر)[٥].

يقول جون تاكلي: (يجب أن نستخدم القرآن – وهو أمضى سلاح – ضد

---

(١) انظر: مجلة البيان، العدد: ١٥٩، بتاريخ ذو القعدة ١٤٢١هـ، وجريدة البلاد (السعودية): ٣٠ رجب ١٤٢١هـ.

(٢) انظر: صلاح الأمة في علو الهمة لسيد عفاني (٦/ ٥٧٥) نقلا عن التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي.

(٣) قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله، لجلال العالم، ص: ٣١.

(٤) المرجع السابق ص: ٤٩.

(٥) الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون، أنور الجندي: ص ٢٩، دار الاعتصام، سلسلة دائرة الضوء.

الإسلام نفسه، بأن نعلم هؤلاء الناس- يعني المسلمين- أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد ليس صحيحاً)[١].

ويقول غلادستون - وزير المستعمرات البريطاني سنة ١٨٩٥، ثم رئيس الوزراء-: (لن تحقق بريطانيا شيئا من غاياتها في العرب، إلا إذا سلبتهم سلطان هذا الكتاب، أخرجوا سر هذا الكتاب -القرآن- مما بينهم تتحطم أمامكم جميع السدود)[٢].

وقال أيضاً: (ما دام هذا القران موجودا في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا تكون هي نفسها في أمان)[٣].

إذن هم يعرفون أن القرآن مصدر قوة المسلمين؛ لذلك أعلنوا الحرب على كتاب الله تعالى، وهذه الحرب قديمة قدم نزول القرآن، كما قال تعالى: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ} [فصلت: ٢٦]؛ يعني أن الغلبة لهم على المسلمين إنما تكون باللغو والطعن في القرآن.

---

(١) انظر: مجلة مجمع الفقه الإسلامي (ص: ٣٢٩)، الدورة السابعة، العدد ٧، الجزء الرابع لعام ١٩٩٢، ورد افتراءات المبشرين على القرآن الكريم، لجمعة (ص: ٢٦٣)، وواجب المسلمين في نشر الإسلام للأستاذ زيد الفياض (ص: ١٩).

(٢) القراءة المعاصرة للقرآن في الميزان، أحمد عمران، (ص: ١٧)، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

(٣) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، للدكتور فهد الرومي (ص: ٤٤٢) مكتب الرشد، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٢، هجمة علمانية جديدة ومحاكمة النص القرآنى، د.كامل سعفان (ص: ٩٧).

أنواع الطعون:

الطاعنون في القرآن كثر، ومطاعنهم وشبهاتهم كثيرة، وحصرها قد يعيي الباحث، ويكل المجد، ولكن حقيقة هذه الطعون أنها تدور في أفلاك محددة، وتنبع من مشكاة واحدة، ويمكننا أن نرجعها إلى أصول وقواعد تلملم شعث هذه الطعون، والرد على هذه الأصول يتكفل بالرد على جميع ما تحته من طعونات لا تعد ولا تحصر[١]، ويمكننا أن نرد المطاعن إلى أربعة أصول يتفرع من بعضها فروع؛ وهي:

١- نفي نسبة القرآن لله تعالى: ويشمل عدة طعون:

- نسبته إلى النبي ﷺ وأنه من تأليفه[٢].

- نسبته إلى الاقتباس من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل[٣].

---

(١) ويكفي في هذا الرد الإجمالي الذي سيأتي في الفصل الأول من الباب: الثاني.

(٢) انظر: الإسقاط في مناهج المستشرقين للدكتور شوقي أبو خليل (ص: ٤٧)، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ومعالم تاريخ الإنسانية، لويلز (٣/ ٦٢٦)، وتاريخ الدولة العربية، ليوليوس فلهاوزن (ص: ٨)، ترجمه عن الألمانية، د.محمد أبو ريدة، الألف كتاب، القاهرة، ١٩٥٨وغيرها من المراجع.

(٣) انظر: المستشرقون والدراسات القرآنية للدكتور محمد حسين الصغير، (ص: ١١٨-١٢٠)، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ودائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية (ص: ١٦)، والعقيدة والشريعة في الإسلام لجولدتسيهر ص: ١٢، عن كتاب القرآن الكريم في مواجهة الماديين الملحدين للدكتور أحمد الشاعر (ص: ٩٣) دار القلم، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢، وانظر: القرآن والمستشرقون، لنقرة (ص: ٣١) وغيرها من المراجع.

- دعوى عدم قدسيته وإمكانية نقده ومخالفته[١]؛ يعني قد يقر بأنه ليس من النبي ﷺ وأنه من الله تعالى، ولكن يقول هو ليس مقدسا، بل يمكن نقده، وهذا الكلام حقيقته نفي القرآن عن الله تعالى؛ لأن ما كان من الله سبحانه فهو مقدس ولا يمكن نقده، وما كان من غيره فينطبق عليه ما يجري على كلام البشر من خطأ أو عجز أو جهل، إلى غير ذلك من نقائض البشر.

٢- زعم عدم حفظه:

يعني قد يقر بأن القرآن من الله جل جلاله، ولكن يزعم عدم حفظه فيدعي:

- أنه ليس هو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، بل قد غير وبدل، وأما الأصل فلا وجود له[٢].

- أنه زيد فيه ونقص[١]؛ يعني قد يقر بأن القرآن الموجود هو الكتاب الذي نزل من الله، ولكن يقول إنه زيد فيه أو نُقص منه.

---

(١) انظر: القرآن الكريم في مواجهة الماديين الملحدين، للدكتور أحمد الشاعر (ص: ٩٦-٩٧)، والتمهيد في تاريخ الفلسفة للشيخ مصطفى عبدالرازق (ص: ٥)، نقض مطاعن في القرآن الكريم، لمحمد أحمد عرفة، ص: ٤، و(طه حسين حياته وفكره) لأنور الجندي، ص: ١٤٤، نقلا عن كتاب مستقبل الثقافة في مصر وغيرها من المراجع.

(٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، لإبراهيم عوض (ص: ٧)، والوحي الجديد (ص: ٤٤)، نقلا عن كتاب مناقشات وردود، لمحمد فريد وجدي (ص: ٣٧٠)، وغيره من المراجع.

٣- اتهام القرآن بالتناقض:

- تناقض الآيات بعضها مع بعض[٢].

٤- اتهام القرآن بمعارضة الحقائق:

- معارضة الحقائق الشرعية[٣].
- معارضة الحقائق التاريخية[٤].

---

(١) انظر: لطائف المنان ورائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن، د.فضل حسن عباس، دار النور للطباعة النشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، والشيعة والقرآن، لإحسان إلاهي ظهير، مكتبة إدارة ترجمات السنة، لاهور باكستان، وكتاب (أيلتقي النقيضان) لمحمد مال الله، دار النفير، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢١، وأصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية، د.ناصر بن عبدالله القفاري، الفصل الأول من الباب: الأول بعنوان (اعتقادهم في القرآن) (١/ ١٢٣) وغيره من المراجع.

(٢) انظر: كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة الدينوري تحقيق السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، وكتاب المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير له أيضا تحقيق مروان العطية ومحسن خرابة، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، وأضواء على متشابهات القرآن، لخليل ياسين مكتبة الهلال، بيروت، وباهر القرآن في معاني مشكل القرآن لبيان الحق النيسابوري تحقيق سعاد بابقي، من مطبوعات جامعة أم القرى، ١٩٩٧، وغير ذلك من المراجع.

(٣) انظر: كتاب: رد مفتريات على الإسلام، لشلبي، ص: ٣٨، عن رسالة المجلس الملي القبطي الأرثوذكس بالإسكندرية، ودائرة المعارف البريطانية (ص: ٢٢)، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، للعقاد (ص٢٧٦)، المكتبة العصرية، بيروت، وغير ذلك من المراجع.

(٤) انظر: المستشرقون والدراسات الإسلامية، للدكتورمحمد حسين الصغير (٧٤-٧٥)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، وفي الشعر الجاهلي لطه حسين (ص: ٢٦)، ومدخل إلى علم التفسير، للدكتور محمد بلتاجي ص: ١٧٠، وغير ذلك من المراجع.

- معارضة الحقائق الكونية، أو حقائق العلم التجريبي الحديث[١].

والملاحظ في هذه الطعون هو التدرج فيها، فكلما انتفت شبهة انتقلوا إلى التي تليها.

ولو علم المسلمون هذه الشبه الأربع والرد عليها لما حصل ما نراه الآن من تأثر كثير من المسلمين بها، بل والاعتقاد فيها أو التسليم بها.

والمطاعن من حيث صراحتها تنقسم إلى نوعين:

١- طعون واضحة وصريحة، وهذا هو الغالب في طعون المستشرقين.

٢- طعون غامضة وملتوية وغير مباشرة، وهذا الغالب في طعون العلمانيين.

- الرد على من طعن في القرآن:

أولاً: الردود الإجمالية التي تصلح لكل شبهة:

١- إعجاز القرآن الغيبي والعلمي والبياني والتشريعي.

٢- التحدي أن يأتي أحد بمثله: (فليأتوا بحديث مثله- قل لئن اجتمعت الإنس والجن - فليأتوا بعشر سور مثله – فليأتوا بسورة من مثله).

٣- شهادة المنصفين من الخصوم بصدقه.

٤- الوحدة الموضوعية لكل سورة.

٥- عدم التناقض.

---

(١) انظر: رد مفتريات على الإسلام، لعبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ومدخل إلى علم التفسير لأستاذنا الدكتور بلتاجي، مكتبة الشباب، ١٩٩٨، وغير ذلك من المراجع.

٦- عدم معارضة كفار مكة له، مع أنهم أكثر الناس عداوة وفصاحة.

ثانياً: الرد على الطعون الأربعة الرئيسية:

أ- الرد على الطعن الأول (نفي نسبة القرآن إلى الله تعالى):

١- لو كان القرآن من تأليف النبي ﷺ، لاستطاع العرب أن يأتوا بمثله، مع حرصهم الشديد على معارضته، لكن النبي ﷺ كان يتحداهم دائماً ويكرره عليهم كثيراً، ومع هذا لم يطق أحد منهم معارضته، ولا يقال: إن النبي ﷺ بلغ من العبقرية مبلغا،بحيث لم يستطع أحد أن يأتي بمثل ما قال. لأنه يمكن للمخالفين أن يجتمعوا فيؤلفوا قرآناً، ومن المعلوم أن الجماعة تبدع وتبتكر أكثر من الإنسان الواحد، فلو اجتمع مائة شاعر مثلاً لتأليف قصيدة؛ لكانت في جمالها وقوتها وسبكها أفضل بمراحل من شاعر واحد ألف قصيدة، مهما بلغ هذا الشاعر من البلاغة والبيان[1]، فإذا كان آحاد المشركين لم يستطيعوا معارضة القرآن؛ فلماذا لم يجتمعوا لمعارضته؟ ولكن هيهات؛ فإنه لو اجتمعت قريش والعرب وأهل الأرض قاطبة، بل والجن ما كان لهم أن يأتوا بمثل آية منه: {قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ

(١) ومن هذا الباب المجامع الفقهية وما فيها من اجتهاد جماعي، ومنه ما في دول الغرب من عمل لجان متخصصة في الطب والفلك والأحياء والكيمياء والكهرباء والحاسوب وغيرها من العلوم، فأثمرت هذه اللجان المتخصصة علوما وإبداعا، واكتشافا لا يستطيعه الفرد الواحد مهما بلغ من فرط الذكاء وسيلان، الذهن وعبقرية العقل أن يبدعه .

عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا} [الإسراء: ٨٨].

٢- (تبرؤ محمد ﷺ من نسبة القرآن إليه ليس ادعاء يحتاج بينة،بل هو إقرار يؤخذ به صاحبه:

في الحقيقة إن هذه القضية لو وجدت قاضياً يقضي بالعدل، لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل، ذلك أنها ليست من جنس (الدعاوى) فتحتاج إلى بينه، وإنما هي من نوع (الإقرار) الذي يؤخذ به صاحبه، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه، أي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة،ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، نقول أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخاً؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحداً يعارضه ويزعمها لنفسه .

الذي نعرفه أن كثيراً من الأدباء يسطون على آثار غيرهم،فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأُمنت تهمته، حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى،و يلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأبواب المستعارة؛ أمَّا أن أحداً ينسب لغيره أنفس آثار عقله، وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد)[1] .

٣- (لا أدل على أن الوحي القرآني خارج عن الذات المحمدية من

---

(١) النبأ العظيم: (ص: ١٦)

مخالفة القرآن في عدة مواطن لرأيه الشخصي ولطبعه الخاص)[1] ومعاتبته على أخطائه :

{يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ} [التحريم:١]، {وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ} [الأحزاب: ٣٧]، {عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ} [التوبة: ٤٣]، {مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ} [التوبة: ١١٣]، {مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الأنفال:٦٧- ٦٨]، {عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ}.

[عبس:٥-١٠]

(١) القرآن والمستشرقون، لنقرة ص:٣٥، والمستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، محمد باقر الحكيم (ص:٥٠)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

أرأيت لو كان هذه التقريعات المؤلمة[١] صادرة عن وجدانه، معبرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه؛ أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه، واستبقاء لحرمة آرائه؟ بل إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه، لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئاً من ذلك الوجدان،و لو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه{وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ} [التكوير: ٢٤])[٢].

وقد أقر بهذا الدليل بعض المستشرقين، مثل المستشرق (ليتنر) حيث قال: (مرة أوحى الله إلى النبي ﷺ وحياً شديد المؤاخذة؛ لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى، ليخاطب رجلاً غنياً من ذوي النفوذ، وقد نشر ذاك الوحي، فلو كان محمد كاذباً - كما يقول أغبياء النصارى بحقه -

(١) الدكتور دراز لم يذكر فيما ذكر تقريعات مؤلمة بل إنما هي عتاب، ولكن هناك آيات آخرى تدل على ما قال منها قوله تعالى: {وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا} [الإسراء:٧٤-٧٥] وقوله: {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ} [المائدة:٦٧]، وقوله: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ} [الحاقة:٤٤-٤٧].

(٢) النبأ العظيم، ص:٢٤.

لما كان لذلك الوحي من وجود)[١].

٤- نسبة محمد ﷺ القرآن إلى الله لا تكون احتيالاً منه لبسط نفوذه، وإلا لِمَ لَمْ ينسب أقواله كلها إلى الله[٢] .

٥- (في بعض المواقف تكون حاجة النبي ﷺ للقرآن شديدة، بل لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم، بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً ومجالاً، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام، ولا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على الناس؛ ومع هذا لم يتقوله ولم ينزل عليه شيء)[٣]، مما يدلك على صدقه؛ إذ الكاذب لا يتأخر في افتراء الكذب عند الحاجة الماسة إليه، ومن أمثلة ذلك حادثة الإفك وسؤال قريش له عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، وتحرقه لتحويل القبلة وغيرها.

٦- توقف الرسول ﷺ أحياناً في فهم مغزى النص حتى يأتيه البيان:

(لقد كان يجيئه الأمر أحياناً بالقول المجمل، أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله، حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد. قل لي بربك: أي عاقل توحي إليه نفسه كلاماً لا يفهم هو معناه،

---

(١) دين الإسلام، للايتنر، ترجمة عبدالوهاب سليم (ص:١٣٢)، المكتبة السلفية، دمشق، ١٤٢٣هـ.، وذكر أن لايتنر هو باحث انجليزي حصل على أكثر من شهادة دكتوراه في الشريعة والفلسفة واللاهوت، زار الأستانة عام ١٨٥٤م.

(٢) شبهات حول القرآن وتفنيدها، د.غازي عناية، (ص:٢١).

(٣) آراء المستشرقين لرضوان (١/ ٣٨٨).

وتأمره أمراً لا يعقل هو حكمته؟

أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر؟

ومـن أمثلة ذلك موقفه في قضية المحاسبة على النيات: {وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ} [البقرة: ٢٨٤] جزع الصحابة من هذه الآية، وأمرهم بالتسليم لها، وكذلك موقفه في صلح الحديبية وموافقته على كل شروط قريش مع اعتقاد بعض الصحابة أن فيها تنازلاً كبيراً -كعمر بن الخطاب- .

٧- إخباره في هذا الكتاب بأمور تحصل بعد موته وعلوم لم تكن في عصره، وقد قيل: يمكن أن تخدع كل الناس بعض الوقت، ويمكن أن تخدع بعض الناس كل الوقت، ولكن لا يمكن أن تخدع كل الناس كل الوقت.

فلنفرض أن النبي ﷺ استطاع أن يخدع كل من كان في زمنه، ألا يخشى أن ينكشف بعد ذلك إذا ازداد الناس علما، فهو يخبر بأمور فلكية وأخرى طبية وأمور جغرافية، ويخبر بأحداث سوف تقع بعد موته، ويتكلم بعلوم لم يعرفها أهل زمانه، كل هذا وهو مطمئن القلب لصدق نفسه، ثم لا يأتي الواقع إلا مطابقاً لما قال، ولا يأتي العلم - على تقدمه الكبير- إلا بتأكيد كلامه وتأييد آرائه، أليس في هذا دليل أنه لا يتحدث من قبل نفسه، بل من قبل من يعلم السر والنجوى الذي لا تخفى عليه خافية.

٨- من الأدلة على أن القرآن ليس من النبي ﷺ: أوقات نزوله[١]؛ فليس للنبي ﷺ اختيار فيما ينزل أو متى ينزل، فقد يأتيه وهو في الفراش مع أهله، أو وهو نائم، أو مع أصحابه، أو وهو سائر، أو على البعير[٢]، وقد يتتابع الوحي ويحمى حتى يشعر بكثرته عليه له، وقد يفتر عنه حتى يشتاق إليه، بل قد يمرض من تأخره عليه.

الرد على ادعا أنه نقل من غيره:

١-لقد تكفل الله تعالى بالرد على هذه الشبهة:

وبالسبر والتقسيم القول: إن القرآن يمكن أن يأتي إلى النبي ﷺ عن أربع طرق: من عند نفسه، من عند شخص، من كتاب، من الله تعالى،أما من عند نفسه فقد تقدم معنا الرد على هذه الشبهة بأكثر من عشرة أوجه[٣].

- أما من عند شخص؛ فمن هو هذا الشخص؟ أكثر الطاعنين على أنهم نصارى أو يهود، فرد الله تعالى عليهم أن لسان أولئك القوم ولغتهم أعجمية، ولكن لغة هذا القرآن عربي مبين، فكيف للأعجمي أن يأتي بأعلى الفصاحة وذروة البلاغة في اللغة العربية: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [النحل:١٠٣].

---

(١) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، للحكيم (ص: ٥٤).

(٢) انظر فتح الباري (١/ ٣٠) فقد ذكر أن عند البيهقي حديث (وإن كان ليوحى إليه وهو على ناقته فيضرب حزامها الأرض من ثقل ما يوحى إليه).

(٣) راجع ص السابقة .

-أما من كتاب، فالنبي ﷺ لا يقرأ ولا يكتب: {وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ} [العنكبوت:٤٨].

- فلم يبق إلا أنه من الله تعالى.

٢- **العهد القديم لم يكن مترجماً إلى اللغة العربية قبل الإسلام**، وقد نص على ذلك المستشرقون أنفسهم، فهذا (جوتين) يقول عن صحائف اليهود: (إن تلك الصحائف مكتوبة بلغة أجنبية)[١]، وقد أشارت الموسوعة البريطانية إلى عدم وجود ترجمة عربية لأسفار اليهود قبل الإسلام وأن أول ترجمة كانت في أوائل العصر العباسي، وكانت بأحرف عبرية[٢] .

كيف إذن أخذ النبي ﷺ منها، لابد على المستشرقين أن يفتروا كذبة جديدة، وهي أن النبي ﷺ درس لغة التوراة فكان يترجمها للقرآن؟!

٣- **ومن لطائف الاستدلال على أنه لم ينقل من غيره ما يذكره العلماء في فوائد أسباب النزول**؛ إذ يذكرون أن من فوائد أسباب النزول أن دلالته على إعجاز القرآن، وأنه من الله تعالى من ناحية الارتجال، فنزوله بعد الحادثة مباشرة يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين، أو من كتب السابقين[٣]، فلو كان ينقل كتابه من كتب غيره، لكان إذا سأله سائل يتريث حتى يراجع الكتب التي عنده، وينظر ماذا تقول في هذه

---

(١) دراسات في تاريخ الإسلام ونظمه، س. د. جوتين، نقلاً عن كتاب الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، لمحمود ماضي، (ص:١٤٧).

(٢) المرجع السابق (ص:١٤٨).

(٣) ذكر هذه الفائدة الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير (١/ ٥٠).

المسألة ثم يجيب، ولكن النبي ﷺ لم يكن يفعل، بل يسأله الرجل فيعطيه الجواب الموافق للصواب، الذي لم يكن قرأه ولا عرفه إلا في هذه اللحظة التي نزل عليه فيها.

٤- **لو كان القرآن مأخوذا من التوراة والإنجيل والكتب السابقة، لما استطاع محمد ﷺ أن يتحدى الناس ويقدم على هذا الخطأ الفادح؛** لأن هذه الأصول المنقول عنها موجودة في متناول أيدي الجميع، فلماذا يتحدى الناس بشيء موجود، ألا يخشى أن يقوم بعض الناس بالرجوع إلى مراجعه والعمل مثل عمله، فينكشف؟

٥- **(افتراض تعلم النبي ﷺ من نصارى الشام ويهود المدينة وغيرهم، لا يتفق مع الحقيقة التاريخية التي تحدثنا عن الحيرة والتردد في موقف المشركين من رسول الله في محاولتهم لتفسير ظاهرة الرسالة؛** لأن مثل هذه العلاقة مع النصارى أو اليهود لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم، الذين عاصروه وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات ورحلات)[1].

٦- **وجود بعض الشرائع في القرآن، التي تتفق مع ما في التوراة والإنجيل، أو حتى ما عند العرب ليس في هذا دليل على أنه مأخوذ منها،** فالقرآن لم يأت لهدم كل شيء، بل لتصحيح الخطأ وإقرار الحق، فالصدق والشجاعة والكرم والحلم والرحمة والعزة كل هذه المعاني موجودة عند كفار مكة ومع هذا جاء الإسلام ولم يغير منها شيئا بل

(١) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، لمحمد باقر الحكيم (ص:٤٣).

باركها وحث عليها، لذلك قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ**»[(١)]. ولم يقل: لأنشئها .

إذن ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل، أن يشجب كل الوضع الذي كانت الإنسانية عليه قبله حتى يثبت صحة نفسه، فمن الطبيعي أن يقر القرآن بعض الشرائع، سواء في الكتب السابقة السماوية، أو في عادات الناس وأعرافهم، وأما الخطأ فإنه لا يقره[(٢)]، وقد نص القرآن على هذا المعنى في مثل قوله تعالى: {وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ} [يونس:٣٧].

٧- **كيف يمكن اعتبار التوراة والإنجيل من أهم مصادر القرآن مع أن القرآن**، خالفها في كثير من الأشياء؛ ففي بعض الأحداث التاريخية نجد القرآن يذكرها بدقة متناهية، ويتمسك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل بعضها،على الأقل تفاديا للاصطدام بالتوراة والإنجيل)[(٣)].

(ففي قصة موسى يشير القرآن إلى أن التي كفلت موسى هي امرأة فرعون، مع أن سفر الخروج يؤكد أنها كانت ابنته، كما أن القرآن يذكر

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة (٨٧٢٩)، رواه الإمام مالك في الموطأ بلاغاً من غير إسناد (كتاب الجامع، باب ما جاء في حسن الخلق) بلفظ (بعثت لأتمم حسن الخلق)، وأخرجه البزار بلفظ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (انظر فتح الباري (٦/ ٦٦٥).

(٢) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، للحكيم (ص:٦١).

(٣) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن (ص:٤٦).

غرق فرعون بشكل دقيق، لا يتجاهل حتى مسألة نجاة بدن فرعون من الغرق مع موته وهلاكه، في الوقت الذي نجد التوراة تشير إلى غرق فرعون بشكل مبهم، ويتكرر نفس الموقف في قضية العجل ؛حيث تذكر التوراة أن الذي صنعه هو هارون، وفي قصة ولادة مريم للمسيح- عليهما السلام- وغيرها من القضايا)[١].

٨- من المعلوم أن في القرآن ما لا وجود له في كتب اليهود والنصارى، مثل: قصة هود وصالح وشعيب، فكيف أتى بها النبي ﷺ؟[٢].

٩- وإذا كان النبي ﷺ أخذ من النصارى الذين خالطهم؛ من أمثال سلمان، وصهيب وورقة، فلِمَ لم يفضحوه عندما سب النصارى وكفرهم في كتابه في عدة آيات، حتى إن سورة المائدة، وهي من آخر السور نزولا، كانت من أكثر السور تكفيرا للنصارى[٣]؟ ذكر الآيات التي تكفر النصارى من سورة المائدة .

١٠- من تناقضهم زعمهم أن النبي ﷺ أخذ القرآن من سلمان وصهيب النصرانيين وابن سلام اليهودي وغيرهم ممن أسلم من أهل الكتاب(٤)، وحقيقة الأمر أن إسلام هؤلاء حجة عليهم، إذ لو كان النبي ﷺ

---

(١) المرجع السابق (ص:٤٧).

(٢) الوحي القرآني من المنظور الاستشراقي ونقده، لماضى (ص:١٤٨)، الجواب الصحيح لابن تيمية (٣/ ٢٥)،(٤/ ٥٧).

(٣) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، لماضي (ص:١٤٨).

(٤) انظر القرآن والمستشرقون، لنقرة،ص:٣٥.

أخذ القرآن والشريعة من أهل الكتاب، فلماذا يتركون الأصل ويذهبون إلى الفرع؟

دعوى جواز نقده ومخالفته، والرد عليهم:

هذا لون آخر من ألوان المواجهة البغيضة ضد القرآن، وهو ليس موجها ضد النص القرآني في مصدره الإلهي، ولكنه يستهدف أثر القرآن في الحركة الفكرية والتقدم العلمي.

فهو قد يقر بأن القرآن من عند الله، ولكن هذا الأمر لا يجعله يسلم من النقد والمخالفة، وحقيقة هذا الطعن أنه إنكار لقدسيته، وأنه من عند الله ولكن بأسلوب ذكي؛ لأنه يعلم أنه لو صرح بإنكار القرآن وأنه ليس من عند الله، فسوف يلقى طوفاناً من المواجهة والتهم التي قد تصل إلى تكفيره؛ فلجأوا إلى هذه الشبهة ومؤداها هو نفس مؤدى إنكار القرآن، فأهم قضية عند المسلمين - وهي التي تؤرق الكافرين وأذنابهم- أن القرآن قدسي لا يقبل النقد، وحاكم واجب الاتباع .

وإذا ثبت أن القرآن ليس من عند النبي ﷺ، وأنه من الله تعالى بكل ما فيه من كلمات وحروف - كما أثبتنا هذا في المباحث السابقة- فهو إذن مقدس لا يمكن الاعتراض عليه ولا نقده، فقد أمر الله الناس باتباع الشرع، والأمر يدل على الوجوب؛ فقال سبحانه: {وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ} [يونس:١٠٩]، فكيف نخالف أمر الله تعالى بأن نتبع غير الوحي؟

ومن أعظم معاني العبادة الرضى به حَكَمًا سبحانه:

{إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ} [يوسف:٤٠]، فالدين القيم أن تجعل تحاكمك لله، والتحليل والتحريم والتشريع من خصائص الربوبية، ومن جعلها لغير الله فقد اتخذه ندا له سبحانه:

{إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ} [الأنعام:٥٧].

والحصر يدل على انفراد الله تعالى بالحكم.

{ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ} [التوبة:٣١]

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ ".وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: {ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ} قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»[(١)].

يعني أنهم لم يتخذوهم أربابا لأنهم عبدوهم،بل لكونهم أطاعوهم في التحليل والتحريم .

---

(١) أخرجه الترمذي (كتاب التفسير، باب سورة التوبة، رقم:٣٠٩٥) وحسنه الألباني (صحيح الترمذي (٣/ ٥٦) رقم:٢٤٧١).

وقال سبحانه: {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا} [الكهف:٢٦]، فسمى التحاكم لغيره شركًا[١]، وقال: {وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [الشورى: ١٠]، وكلمة (شيء) نكرة في سياق النفي وهذا من صيغ العموم، فكل شيء نختلف فيه فالحكم فيه لله، ثم أكد على إرادة العموم بـ (من) التي تفيد التأكيد[٢]. والله سبحانه لا يحكم ولا يقضي إلا بالحق، فمن رد حكم الله وشرعه فإنما رد الحق: {فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ} [يونس:٣٢]. قال جل جلاله: {وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨]. وقال الله تعالى: {إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ} [النساء: ١٠٥].

وقال سبحانه: {وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ} [الإسراء:١٠٥]، فهو متلبس بلبوس الحق على كل أحواله[٣]. والله تعالى لا يظلم ولا يحيف في الحكم[٤] {أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ} [النور:٥٠]، فلماذا إذن لا نأخذ حكمه؟ وقال تعالى:

---

(1)انظر:أضواء البيان للشنقيطي (٤/ ٩١)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٨٨.

(2) انظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٧).

(3) انظر: تفسير القاسمي (٤/ ٦٣٦).

(4)انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٨).

{أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ} [التين: ٨]، {وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ} [الأعراف: ٨٧]، {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠].

فإن كان الله أحسن الحاكمين وخيرهم وأحكمهم، فكيف يعرض المسلم عنه إلى غيره؟ لذلك قال النبي ﷺ كما ذكر الله تعالى عنه: {أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ} [الأنعام:١١٤]، يعني وأهل الكتاب يشهدون بفضله ومنزلته وأنه حق.

- من يعرض عن دين الله ويحكم أي شيء آخر، فإنما هو متبع لهواه:

قال سبحانه: {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ} [القصص:٥٠]؛ يعني لا أحد أضل ممن اتبع هواه.

وقال جل جلاله: {وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٤٩-٥٠]، فكل حكم غير حكم الله، فهو حكم الجاهلية، وليس حكم الحضارة والتقدم كما يزعم الطاعنون. وقال: {وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعَ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨]. وقال: {وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ} [الرعد: ٣٧]، وهذا وعيد شديد للنبي ﷺ لو خالف كتاب الله؛ فما بالك بغيره.

بل هذا التولي عن دين الله يعد من نواقض الإسلام يقول تعالى:

{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥]، فنفى الله تعالى عن من لم يُحَكِّمِ النبيَّ ﷺ الإيمان، وأقسم على ذلك بأعظم قسم - أقسم بنفسه العلية - وأكد هذا بالنفي مرتين (لا.. لا)، (وفي هذا الوعيد الشديد ما تقشعر له الجلود وترجف له الأفئدة فإنه أولاً أقسم سبحانه بنفسه مؤكدا لهذا القسم بحرف النفي بأنهم لا يؤمنون فنفى عنهم الإيمان الذي هو رأس مال صالحي عباد الله حتى تحصل لهم غاية هي تحكيم رسول الله ﷺ ثم لم يكتف سبحانه بذلك حتى قال: {ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ} [النساء: ٦٥]، فضم إلى التحكيم أمرا آخر هو عدم وجود حرج أي حرج في صدورهم فلا يكون مجرد التحكيم والإذعان كافيا حتى يكون من صميم القلب عن رضا واطمئنان وانثلاج قلب وطيب نفس ثم لم يكتف بهذا كله بل ضم إليه قوله: {وَيُسَلِّمُوا} أي يذعنوا وينقادوا ظاهرا وباطنا ثم لم يكتف

بذلك بل ضم إليه المصدر المؤكد فقال: {تَسْلِيمًا} فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم ولا يجد الحرج في صدره بما قضى عليه ويسلم لحكم الله وشرعه تسليما لا يخالطه رد ولا تشوبه مخالفة)[1].

وقال سبحانه:

{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ} [المائدة: ٤٤].

{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ} [المائدة: ٤٥].

{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ} [المائدة: ٤٧].

{وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ

(1) فتح القدير للشوكاني (١/ ٥٧٣).

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ} [النور:٤٧-٥٤].

لذلك كله فلا يجوز لأحد كائنا من كان أن ينتقد كتاب الله أو يخالف مقتضاه:

قال تعالى: {وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ}.

[الرعد: ٤١]

نعم لا يجوز لأحد أن يعقب على أحكام الله، وذلك أن الانتقاد والتعقيب إنما يكون بسبب أمور؛ إما أن المعقب والمنتقِد أعلم من المنتقَد، سواء كان أعلم على العموم أو بهذه المسألة بالذات التي انتقد فيها، أو لا يكون أعلم ولكن المنتقَد غفل عن نقطة معينة في حكمه جانب فيها الصواب، فينبهه المنتقِد عليها .

وكل هذا منتفٍ بحق الله سبحانه، فلا أحد أعلم منه في كل الأمور جملة وتفصيلاً، والله سبحانه وتعالى لا تأخذه سنة ولا نسيان ولا غفلة: {لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى} [طه: ٥٢]. {وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا}.

[الأنعام: ١٣٢]

وقال الله تعالى: {إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ}.

[النساء: ١٠٥]

وقال سبحانه: {وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ}.

[النساء: ٦٤]

إذن الغاية من إنزال الكتب أن يُتحاكم إليها، والغاية من إرسال الرسل طاعتها، فمن لم يحقق هذه الغايات فهو لم يؤمن أصلاً بدين الإسلام، بل بكل الأديان، فما الدين إلا طاعة الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وما الإسلام إلا استسلام العبد لله في تطبيق شرعه على نفسه ومجتمعه.

الرد على زعم من ادعى عدم حفظه :

١- شهد لكماله وحفظه أعداؤه فمن تلك الشهادات:

يقول لوبلوا[١]: (إن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر)[٢].

ويقول موير[٣]: (إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حُفِظَ بعناية شديدة

---

(١) لوبلوا: لم أجد له ترجمة، وإن كان واضحا من اسمه أنه فرنسي، وقد يكون هناك خطأ مطبعي في كتابة اسمه، فقد وجدت رجلا فرنسيا اسمه (ماري لوبان) وهو زعيم حزب الجبهة الوطنية، كان ضابطا في الجيش الفرنسي بالجزائر، وله عضوية بالبرلمان الأوروبي بمدينة ستراسبورغ، حزبه ينمو لمطالبته بإخراج العرب من فرنسا، يتراوح عدد المصوتين له بين ٨ و١١٪، فلعله يكون هو مقصود الدكتور دراز لاسيما أن دراز أقام في فرنسا طويلا.(انظر: مجلة الهدى التونسة، العدد١٣).

(٢) انظر:كتاب مدخل إلى القرآن الكريم، للدكتور محمد عبدالله دراز،(ص:٤٠)، دار القلم، الكويت،١٩٩٣.

(٣) ليوأري موير (١٨٩٥ – ١٩٥٩): ولد في بولندا، علام بولندا، عالم بالآثار الإسلامية، يهودي، هاجر إلي فلسطين عام (١٩٢١) ومات فيها، وتقلب في الجامعة العبرية بين مناصب كثيرة من مدرس في معهد الدراسات الشرقية ثم عميد المعهد ثم مدير للجامعة، وله مؤلفات كثيرة، انظر: «موسوعة المستشرقين»: ص ٥٣٩.

بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول: إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها، والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة؛ فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم، يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا، والذي يرجع إلى الخليفة المكروب عثمان)[١].

ويقول بلاشير[٢]: (إن الفضل بعد الله يعود إلى الخليفة عثمان بن عفان؛ لإسهامه قبل سنة ٦٥٥م في إبعاد المخاطر الناشئة عن وجود نسخ عديدة من القرآن، وإليه وحده يدين المسلمون بفضل تثبيت نص كتابهم المنزل، على مدى الأجيال القادمة)[٣].

٢- هذه الشبهة الرد عليها متفرع من الرد على الشبه السابقة، فإن كان المخالف قد أقر بأن هذا القرآن ليس من النبي ﷺ ولا نقله من غيره، بل هو من الله تعالى؛ فإن الله قال في هذا الكتاب: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ} [الحجر: ٩]، فبما أن الله تكفل بحفظه، إذن لا يوجد مجال للطعن في بقائه؛ لأن هذا تكذيب لله تعالى.

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم، للدكتور محمد عبدالله دراز،(ص:٤٠)، دار القلم، الكويت،١٩٩٣.

(٢) تقدمت ترجمته ص (٩) .

(٣) تاريخ الأدب العربي لبلاشير (٢/ ٢٢) عن كتاب قالوا عن الإسلام (ص:٥٢).

٣- يكفي في الرد على هذه الدعوى العارية عن مستند أن نطالبهم بالدليل: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ١١١].

فالدعاوى إن لم يقيموا عليها بينات أصحابها أدعياء

٤- نرد عليهم بالواقع؛ فإن الواقع يُثْبِتُ أن القرآن لم يتغير منه شيء، فالتفاسير القديمة والكتب المؤلفة في الصدر الأول، والآثار المنقولة عن التابعين والصحابة،والأحاديث المرفوعة للنبي ﷺ لم نجد فيها حرفا يغاير ما هو بين أيدينا الآن،بل يذكر فيها القرآن بنصه وحروفه وترتيبه، وكل من قام بمحاولة لتحريفه أو تغييره فُضِحَ وكُشِفَ وباءت حيلُه بالفشل .

٥-أجمع العلماء على أن ما بين دفتي المصحف هو كتاب الله الذي أنزل، وليس فيه نقص ولا زيادة[١]، ولم تعتن أمة من الأمم بكتاب كاعتناء أمة الإسلام بكتاب الله (القرآن)، فقد ألفت حوله من الكتب ما لا يحصى كثرة؛ في تفسيره وضبط حروفه وعلومه، وتفنيد الشبهات حوله، وقراءاته، وتجويده، وإعجازه، وبلاغته، وإعرابه، ورسمه، وأعداد كلماته، وحروفه، وغير ذلك[٢].

- وأما أجوبة الشبهات في دعوى التناقض سواء في الآيات بعضها مع بعض أو تعارض الآيات مع الحقائق (الشرعية والتاريخية والعلمية) فهي كثيرة وتفصيلها طويل، وقد أجبت على الكثير منها في الرسالة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

---

(١) انظر: شبهات حول القرآن (ص: ٤٩).

(2) انظر: مدخل إلى علم التفسير، أ.د. محمد بلتاجي (ص: ٧).